رقعة الشطرنج والرجل العاري

سيرة ومجموعة قصص

للكاتب البرازيلي

فرناندو سابينو

ترجمها عن البرتغالية

عوني الديري

الكتاب: رقعة الشطرنج والرجل العاري (سيرة ومجموعة قصص)

الكاتب : فرناندو سابينو

ترجمة : عوني الديري

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.com http://www.apatop.com

APA

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سابينو ، فرناندو

رقعة الشطرنج والرجل العاري

/ فرناندو سابينو – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ١ - ٦٠٢- ٤٤٦- ٩٧٧- ٩٧٨

٢١٦ ص،١٨*٢١ سم.

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٢٩١٩

رقعة الشطرنج والرجل العاري





مدخل:

لماذا فرناندو سابينو؟

عندما اعتزمت ترجمة بعض أعمال هذا الأديب البرازيلي المعاصر واخترت مجموعته القصصية "الرجل العاري"، من ضمن سلسلة الأعمال الأدبية العشرة التي قررت فيها التعريف بعشرة من الأدباء البرازيليين وأعمالهم، وقد ابتدأتها بترجمة رواية جورج أمادو: "تريزا باتيستا تعبة من الحرب"، وجدتني مضطرًا إلى كتابة مقدمة مطولة ودقيقة متعلقة بأعمال فرناندو سابينو وخصائص أدبه والسمات العامة في سيرته، ولم تبد المسألة سهلة أو ممتعة، بل مشقة ومعاناة رأيتني بغنى عنها مع ما في الحياة من مقتضيات ومسؤوليات وموجبات تحتل المساحة الكبرى من نشاط الفرد هذا واهتماماتي الشخصية المتعلقة بالكتابة الأدبية لا تشغل، صراحة، الحيز الأكبر من اهتمامي، بل إن صلتها بالسياسة والاقتصاد أوثق عروة وأرحب مدى، هذا والدراسة السياسية التي أنا في طور إعدادها أحق بإبحاري وجهتها، لأنني أكثر قناعة بجدواها وأكثر ميلًا إلى الأمل فيها. فما الوسيلة لأفي بالتزام ألزمت به نفسي في نقل الاتجاهات الثقافية البرازيلية عبر عشر ترجمات مختارة، لأبين للقارئ العربي أن الثقافة الأمريكية اللاتينية ليست مرتبطة باللغة الأسبانية والثقافة الأسبانية كما هو شائع في عالمنا العربي،

وعلى هذا الأساس يتصرف النقاد ورجالات الفكر والمؤسسات الإعلامية المختلفة! فهناك الثقافة البرازيلية واللغة البرتغالية– البرازيلية، وهناك حقيقة لا تقبل جدلًا هي أن البرازيل في الواقع قلب أمريكا الجنوبيــة ورئتاهــا، وكون اللغة البرتغالية غير معروفة بعد في العالم العــربي، وكــون بعــض الترجمات عن الأدب البرازيلي قد تمت عن اللغــات اللاتينيــة الأخــرى كالفرنسية والأسبانية والإيطالية، فقد بقى شائعاً الاعتقــاد بــأن الثقافــة الأمريكية اللاتينية مرتبطة بالأسبانية لغة وثقافة، لذلك، ومن زاوية الالتزام الأدبي بقضية الثقافة العربية، وجدتني ملزمًا باستجلاء الحقيقة بالإضافة إلى الفائدة التي يمكن أن يجنيها المثقف العربي من ترجمات مختارة جيدًا لتحقيــق هذه الغاية، وكان ذلك القرار.. والسبب الثاني هو أن الثقافة البرازيليــة أكثر التصاقًا بنا وتعبيرًا عن ثقافتنا العربية لاعتبارات سوسيولوجية مختلفة ولتشابه الجذور الثقافية والمعاناة والتطلع، فما هي الوسيلة إذًا؟

بعد مطالعة ما تيسر من أعمال فرناندو سابينو وجدت أن مشــكلة المقدمة قد حلت تلقائيًا، فــ "رقعة الشطرنج" التي تناول فيها سابينو سيرته الذاتية مع الكتابة هي أفضل مقدمة لمجموعته القصصية "الرجل العــاري"، وهي بحد ذاتها رائعة أدبية ميزتها البساطة العميقة الــتي تشــدك منبــهرًا، بالإضافة إلى أنها تناولت أعمال ســابينو بمجملــها دون التوقــف عنــد التفاصيل، لأنه فتش فيها عن إبراز حقيقة الأدب وجوهره، وهكذا كانت هذه الترجمة خلاصة كتابين لفرناندو سابينو، هما: "رقعة الشطرنج": سيرة ذاتية قصيرة، و"الرجل العاري": مجموعة قصص فاق عددها الثلاثين.

وإذا كان سابينو قد بدأ مشواره الأدبي فتى يافعًا شغف بالأدب وأصيب بحمى الكلمة كما سيتبين القارئ في "رقعة الشطرنج"، فقد حققت شهرته الأدبية الأولى في عام ١٩٤٤ عندما أصدر روايته الأولى "الوشم" ثم عاد إلى البرازيل بعد ثلاث سنوات من الإقامة في الولايات المتحدة الأمريكية لينشر مجموعة قصصه الجديدة "المدينة الفارغة" في عام ١٩٤٨ التي أثارت ضجة كبيرة في أروقة الأدب البرازيلية، وفي عام ١٩٥٢ طبع كتابا جاء حاملًا لتجارب أدبية جديدة هو "الحياة الواقعية"، ومع روايته الجديدة "الموعد المضروب" التي صدرت في عام ١٩٥٦ فإن الأديب الإقليمي ابن ولاية أميناس جيرايس فتح لنفسه طريقًا جديدًا في عالم الأدب البرازيلي، وبعد ذلك تعاقبت مجموعاته القصصية "الرجل العاري" و"زوجة الجار" و"رفيقة السفر" و"الإنكليزية المتألقة" و"دع ألفريدو يتكلم" و"ملتقى المياه"، تعاقبت كلها لتثبت قدرته الأدبية الهائلة وسخريته المرهفة من الحياة اليومية، آخذًا منها أمثولات حقيقية للحياة والخير والجمال، في عام ١٩٧٩ أصدر روايته "المتخلف العقلي الكبير" التي غزت الساحة البرازيلية فتناولها النقد والجمهور بحماس منقطع النظير.. وفي عام ١٩٨٢ أصدر رواية أخرى بعنوان "الصغير في المرآة"، التي بيع منها خلال أيام معدودة مائة ألف نسخة داخل البرازيل، وفي ١٩٨٥ أثار دهشة من نوع جديد في كتابه "السكين ذات الحدين"، ثم أصدر في عام ١٩٨٨ سيرته الذاتية "رقعة الشطرنج".

عوني الديري

بغداد في ١٩٨٩/١٢/٢٠



رقعة الشطرنج

ليست بيضاء بمربعات سود ولا سوداء بمربعات بيض.. إنها ذات لون آخر بمربعات سود وبيض.

إن رقعة الشطرنج ترمز، بالنسبة لفرناندو سابينو، إلى الحقيقة التي تختبئ تحت ظل الواقع، والتي لا يمكن أن تخرج من مخبئها إلا عبر الحلم، والتصور والخيال المبدع.

رسم باللون الرمادي

مقدمة رقعة الشطرنج:

إعداد: باولو مندس كامبوس

أعترف بأنني لا أقاوم أي اتصال ممكن بالآخرين، أصل، كمن لا يريد شيئًا وأبدأ في الحال بسؤال من أواجهه، عما حدث، وعما إذا كان هنـــاك أي خطر من احتمال إلقاء القبض على الموجودين، ومن الطلقات الناريـــة الطائشة أو تبادل الرصاص والمطاردات، وبالتالي، عما إذا كان هنالك قتلى أو دم مراق على مرأى من المتفرجين.. أفتش مع كل خطوة أخطوها، عن شيء فوق مطاولات العقول العادية، متدبراً أمري بتكتم، وملزمًا نفســـي بالبقاء للاستقصاء، والتجسس إذا اقتضى الأمر، إذا حـــدث أن أشـــعلت شمعة بين أرجل من أواجههم فإني أبدأ بمعالجة الطريقة التي سأتصرف بها، إن الباعة المتجولين، والمروجين للسلع، وموسيقى الشوارع، وأكلة الزجاج هم أكثر ما يستوقفني، وأحرص بالتأكيد على المراقبة بسخرية واستعلاء كيما أنسحب بابتسامة هزء إذا ما دفعني أحدهم قائلًا: "هيا انصرف".. ولكنني ضمنًا أرغب في البقاء حتى نهاية السحر.

هاتان العينان المنفتحتان على الواقع اليومي تفسران الوجه العـــادي لفرناندو سابينو: إنهما عينان موزعتان بين القلق واليقظة، مطبوعتـــان في وجه رأى فيه روبين براغا تعبيرًا يقظًا شبيهًا بتعبير وجه بائع بضاعة علـــى قارعة الطريق.

ساخر يرفه عن نفسه على حساب الآخـــرين، ومـــاجن يضـــحك الآخرين على حساب نفسه، هذا ليس بصحيح: "لم آخذ بالمزاح شيئًا قط. حتى المزاح كان شيئاً جديًا في حياتي". لهذا رأى في آكل الزجاج مســـألة جدية، والتوله الذي اعتراه، يرافقه الإجهاش في البكاء طيلة الليل، وهو لا يزال يافعًا يرتدي السروال القصير، كان جديًا للغاية.. وبالجدية نفسها قرر أن ينسى المسائل اللغوية الصغيرة المتعلقة باللغة البرتغالية بعد أن كان قـــد احتل المرتبة الثانية في المباراة الثقافية التي جمعت في الريو دي جانيرو نخبـــة من اللغويين في البرازيل واقتسم الجائزة مع زميله وصديقه الـــدائم، عـــالم النفس، ايليو بيليغرينو.

في تلك المرحلة التي قضاها في الريو دي جانيرو، ولعجزه المالي المطلق اجتاز سيرًا على قدميه المسافة بين محلة لارغو دي ماشادو وعمارة دانويتي بغية استسلام المائة الف كروزيرو التي حصل عليها في مســـابقة القصـــة الصغيرة التي أجرتها مجلة كاريوكا.

- "وحملت الكشفية أيضًا على محمل الجدية، ودائمًا برفقة ايليو، ومنذ سن التاسعة ولغاية الثالثة عشرة، وبالجدية نفسها، وعلى الرغم مـــن الخـــوف الذي اعتراني، قررت أن أواجه العصا الغليظة التي كانت تستعملها عصابة "أبرغو مرنامبوكو" "وكنت أنت واحد منـــها " أنـــت، إشـــارة كاتـــب التحقيق".. بعد ذلك انتهيت إلى أخذ السباحة على مأخذ الجديـــة كنـــت نحيلًا فقررت أن أصبح أقوى مما أنا.. وهكذا صرت بطلاً في السباحة على الظهر طيلة أربع سنوات في ميناس جيرايس، وسجلت عدة أرقام قياســـية

برازيلية ولكنني لم أفــز أبــدًا ببطولــة البرازيـــل لأن شخصًـــا يـــدعى بارلينيوفونسيكو أي سيلفا كان دائمًا يزاحمني ويظل متقدمًا علي بثانيـــة، ثانيتين أو ثلاث في السباحة على الظهر لاجتياز بحيرة سانتا احتللت المركز الثاني وكان أيفو بيتانعوي قد احتل المركز الرابع، كنت آخذ كل ذلـــك بجدية إلى حد أنني استحصلت على إذن خاص للتمرين في نادي "مينـــاس تينس"، وفي ثماني عشرة درجة مئوية تحت الصفر.. وعندما كنت أســـبح كانت الأشياء الأخرى كلها تتضاءل وتغدو غير مهمة، ولكنني لم أتمكن من الفوز بالمرتبة الأولى في السباحة: فقط احتفظ حتى اليوم بالرقم القياســـي للأربعمائة متر، ولكن هذه المسافة قد ألغيت منذ زمن طويـــل.. وعنـــدما بدأت باحتساء الخمر والنوم متأخرًا أصبحت السباحة شيئًا يكدرني".

وماذا أيضًا؟

– "لم أفلح في أخذ الفروسية على مأخذ الجدية بالرغم من أنني كنت بدأت ممارستها وأنا طامح في أن أكون فارسًا محليًا. كنت أجيد الركوب ولكنني لم أنل أبدًا مرتبة أولى في القفز فوق العارضة. لا أعرف كيف أنهيت الدورة. في مرة كان عليَّ أن أجري امتحانًا في ألعاب القـــوى ونســـيت الملابـــس الخاصة بذلك معرضًا نفسي لخطر الطرد، ولحسن الحظ، كنت قد اشتريت لباسات عادية جديدة ولما سألني المدرب عن الأمر أجبتـــه بأنـــه اللبـــاس الأمريكي وعندها سألني عن الجوارب فقلت أنـــني ذهبـــت إلى البيـــت بالسروال فلم أعد بها.. فانتهى إلى الأدغال.

وفي ليلة أفلتت الجياد الثلاثون من إسطبل نادي الفروسية وانطلقت تائهة في شوارع "بللو أوربزونتي". ومن اتصل هاتفيًا بالحارس الليلي للنادي كان ذلك المدرب نفسه، وأما الذي رد على المكالمة يغالبه النعاس ويظن أن المسألة لا تعدو كونها مزحة ثقيلة فكان سائس الخيل فرناندو تافارس سابينو".

إنه مبدع في خلق الالتباسات لا يضاهيه أحد في ذلك، وصانع ماهر لسوء التفاهم بين الأصدقاء، وخلاق في ربط الأمور بصورة غير متوقعة بعضها بالبعض الآخر كما أنه واضع بارع للكلمات ذات المعاني المزدوجة، إنه سابينو.. سابينو الذي انتهى إلى تطوير هذه القدرية محولًا نفسه بها إلى أحذق وصاف للالتباسات اللغوية البرتغالية.

إنه كافكا من طراز آخر، ذو كهربة إيجابية، أو لنقل، أنه كافكا عالم يمكن تحمله وحتى التمتع به كون هذا العالم منسوجًا من العبث. طاف فرناندو شوارع لندن المكسوة بالثلج ورأى، مذهولًا، منبهرًا، أن القمر الإنكليزي مربع الشكل، ونسج، انطلاقًا من هذه الاكتشاف، سلسلة من الملاحظات العميقة المتعلقة باللغز البريطاني، وأخذ علمًا في اليوم التالي بأن قمر لندن المربع الشكل لم يكن إلا ضوءًا اصطناعيًا عند الأعلى من مرفاع موضوع في مكان شاهق من عمارة قيد الإنشاء.

وعندما أمعن غيليويو سيزار، ومركيز ريبيلو النظر في كتابات فرناندو سابينو الأولى أصيبا بالذهول.. وكان قد انتسب إلى كلية الحقوق التي دخلها لأول مرة وفي يده اليسرى كتابه الأول مطبوعًا "الزرازير لم تعد

تغني"، وفي يده اليمنى كتاب فيه مجموعة تواقيع أدبية، وفي جيبه رسالة حماسية كتبها إليه ماريو دي أندرادي.

– "إن أعوامي الثمانية عشر الأولى كانت سباقًا مع الزمن! كل شيء حدث خلالها في وقت واحد، كان علي، من السادسة وحتى الثامنة صباحًا، أن ألتحق بنادي الفروسية، وأن أتابع من الثامنة وحتى العاشرة دروسًا في اللغة البرتغالية في مدرسة الأب ماشادو، وهنالك استحصلت على أجازة خاصة للخروج خمس عشرة دقيقة قبل نهاية الدوام وأنا أخبر مدير المدرسة، وبصورة مأساوية، عن حياتي المليئة بالعمل والمواعيد مهديًا إليه كتابي الأول، وعندما استدعى المدير زملائي وألقى عليهم الموعظة الثقيلة: "أيها الرعاع.. أنظروا في هذه المرآة".. ولما لم يكونوا على علم بحديثي إلى المدير فإنهم أصيبوا بالدهشة ونظروا إلى مرآة كانت معلقة هناك".

بالإضافة إلى ما سبق كان فرناندو سابينو يكتب قصة في اليوم، ويعزف على الآلات الموسيقية الكهربائية حتى الفجر ويصغي إلى موسيقى الجاز ويعاقب معزفًا بتخريبه.

– "دفع أبي كلفة طباعة "الزرازير لم تعد تغني". أما كتابي الثاني رواية "الموعد المضروب" فقد ذهب هنيبول ماشادو إلى جوزيه أوليمبيو الذي نشره تجاريًا. إنه المجد: أخذت النسخة الأولى وذهبت إلى مدينة بتروبوليس وأنا أشتم الصفحات وأكحل عيني بغلاف سانتا كروزا".

أما في الصحافة فإن سابينو يعتبر أحد المبدعين ويقول أنه تعلم صناعة الخبر في صفحات "النيويوركر"، ولكن الحقيقة أن إبداعه يعكس تلك

الحيوية التي تزخر بها عيناه والمتبهتان دائمًا إلى أصــــغر تفاصـــيل العـــوالم الصغيرة.

سبع أدوات لم تكن كافية لاســـتعمالاته. عـــاد إلى البرازيـــل، إلى الصحافة، وانخرط في السلك الدبلوماسي كمحرر، وشغل لأكثر من سنتين منصب الملحق الثقافي في لندن، وأسس دار نشر نالت النجاح الكبير، وباع دار النشر وهو اليوم يشتغل في السينما الوثائقية.

- "لم أبدأ العمل في السينما لأنه ممتع ورائع.. حدث ذلك بالصدفة ولست موهوبًا أمام الكاميرا هذا، لأنني لا أعرف أن أغمز بغير عيني اليمنى، ولكني أحب المونتاج لأنه مهمة شبيهة بتقنية الرواية وليس لي، ومـــع هـــذا، أي طموح في المجال السينمائي ولكني أريد فقط أن أقوم بأي عمل ممتع يوفر لي بعض المال".

وللحديث عن الرواية فإن ســـابينو نشـــر أولى رواياتـــه "الموعـــد المضروب" في عام ١٩٥٦ وبطبعات عديدة، ثم نشرت في البرتغال وألمانيا وهولندا وأسبانيا وإنكلترا، وفيها ينعكس، عبر قلقه المميز، الوجه القـــاتم لفرناندو سابينو. ومنذ زمن طويل يطالبه قراؤه برواية جديدة تكون الرؤية الجديدة لهذا الوجه القاتم ولكن الكاتب لا يبدو متجاوبًا مع الطلبات.

في رحلة له مع زوجته "ليجيا مارينا" إلى لوس أنجلوس لقضاء أجازة، فإن الصديق فرناندو سابينو وصل بوقار إلى استنتاج مفاده أنه لم يعد لديه أي اهتمام بالبقاء في عالم الأدب:

– "إني أناقض حياتي كلها، لأنني منذ بدايتي المبكرة فتشت دائماً عن المركز الأول. ولكن لم يعد هنالك أمكنة للمواهب الكبيرة.. لقد غدا الأدب شيئًا آخر لا تعرف الناس ما هو حتى الآن.. ويبدو أن السينما قد انتهت قبل أن تبدأ.. لقد تغير العالم كثيرًا، وبسرعة مذهلة، وإلى حد يعطي الانطباع بأن كل ما حدث قد حدث في يوم أربعاء من شهر تموز.

رقعة الشطرنج

(سيرة)



-١-

"أكتب لأن لا عينين خضراوين لي".. كان لوسيو كـــاردوزو مـــن أعطى مرة هذا الجواب في إحدى المقابلات الصحفية. أؤكد أن لا شأن لي بهذا وإن يكن لي أنا الآخر عينان خضراوان.

لا أحب كثيرًا المقابلات الصحفية، علمًا أن فكرة هذا الكتاب التي ترافقني منذ سنوات طويلة، وخلال حياتي الأدبية كلها، كانت تتجدد مع كل مقابلة صحفية أجريت معي، كالمقابلة مع مجلة "هو وهي" التي أجراها الصحفي دي ألميدا، وتلك التي أجرتها الصحفية كريستينا سيرا لمجلة "ليـــا ليفرو"، وأخرى مع الصحفي أومبرتو فيرنك من مجلة "فيجـــا"، وأخـــيراً المقابلة مع "مجلة بلايبوي" التي أجرتها معي الصحفية نورما خوري.. هـــذا بالإضافة إلى المحاضرة التي نشرتها مكتبة بارانا الوطنية في كتيب، واللقاءات المسجلة في جامعات برازيلية متعددة والمأخوذة عـــن برنـــامج "الموعـــد المضروب" الذي يعده أراكني تافورا.. إن أفكاري هـــي دائمًـــا نفســـها، ولكني، أحيانًا، وبالرغم من أنني أكون قد أجبت جيدًا عن سؤال ما، فإني لا ألبث أن أغرق، بالتفكير، في صحة عكس ما صرحت به.. أحـــب ألا أقيم اتفاقً مع الواقع، بل مع الحقيقة وحدها، ولكن ما هي الحقيقة؟ هي ما كان المسيح نفسه يسأل عنه.. إنني دائمًا، حين أتكلم عن نفسي وأذهـــب عميقًا في ذاتي أحس بأنني أقتل الدجاجة التي تبيض ذهبًا، محولًا أدبي عـــن غرضه ومجهزًا على السبب الذي يحدوني إلى الكتابة.

أكتب لأنني غير متوافق مع الواقع. إنني بحاجة إلى حقيقـة تكـون خارجة عني لأتشبث فيها. أحس بنفسي خـارج المرحلـة. إن حقـيقتي الداخلية تعيش مستوى أدنى من مستوى الواقع الذي يحيط بي، ولكي أعيد التوازن في الاتصال العادي بالآخرين فإن عليّ أن أكتب، لأن إعادة خلق الواقع بالمخيلة وبلغة مكتوبة هي الطريقة التي بها أقيم الاتصال بالآخرين. ويوجد نوع من التطهر في ما أكتب: حتى لا أحتاج إلى التمدد على أريكة طبيب نفساني.. فإذا كنت قد كتبت مثلًا، كتابًا بعنـوان "السـكين ذات الحدين"، فربما أكون قد فعلت ذلك لكي لا أطعن أحدًا.

بين ظهور روايتي "الموعد المضروب" و"المتخلف العقلـي الكـبير" انقضت فترة قوامها ثلاث وعشرون سنة.. كانت سنوات من الأحـزان شأني معها شأن ذلك الرجل الذي كان يطوف العالم مفتشاً عن ثمـرة دون أن يدري أنه يستطيع أن يقطفها من شجرة في بستانه. لقد بدت كخرافـة سيزيف، يصعد إلى الهضبة ويهبط منها ثم يصعد من جديد وهو يحمل تلك الصخرة.

كان الآخرون يحيطون بي معترضينني بآرائهم: "أنت الذي كتبـت كتاب سنواتنا الثلاثين ملزم بأن تكتب كتاب سنواتنا الأربعـين، وكنـت أجيبهم: "إنه لشرف كبير لي ولكني لم أكتب كتاب سنواتنا الثلاثين بـل سنواتي أنا. لماذا لا تكتب أنت كتابك"؟

لقد انتحر همنغواي لأنه لعب الورقة التي فرضوها عليـه، أو الـتي فرضها هو على نفسه حين أراد أن يكون الحرب والحركة، لقد فرض على نفسه المزاحمة وهو يقول دائماً: "لقد خضعت الجولة الأولى ضد تورغنيف

وربحتها، والجولة الثانية ضد فلوبير وربحتها، والآن بقى لي أن أناضل ضد تولستوي". ناضل فخسر... وفي نعيه كتبت مجلة التايم تقول: "كان يعيش وهو ينظر إلى كل شيء كأنه يراه للمرة الأخيرة. "لقد كان همنغواي يودع دائمًا".. وهذا هو الانتحار بكل ما فيه من زخم.

لقد انتهيت إلى أن أفعل العكس: إنني دائماً واصل لتوي. لم أقبل بأن يفرض علي طريق ليس بطريقي، وأسعى إلى أن أرى كل شيء كأنني أراه للمرة الأولى.

-٢-

في كل مرة أجلس لأكتب فأنا مبتدئ.. أجلس لأكتب شيئًا لا أعرف ما سيكون، وأكتب، تحديدًا، لأعرف ما هو، ما أكتبه، وحدي أستطيع أن أكتبه، وحدي ولا أحد آخر، لهذا تراني أحيانًا أمضي ساعات كاملة، وأيامًا، وأنا أفتش عن الكلمة المناسبة وعن صياغة عبارة ما. لا أريد أن أكرر أشياء قيلت، وحتى وأن أكن أنا قائلها، ولكن مع الأسف، هذا ما يحدث أحيانًا. لهذا، عندما أكتب، يجب أن أنسى ما تعلمته، وأن أحرر نفسي من الخبث، ومن الأفكار التي فرضوها علي، وأخيرًا من كل شيء يمكن أن يحد من حريتي في التعبير.

هذا الاهتمام هو الذي حدا بي إلى وضع قاموس برازيلي للأمكنة العامة والأفكار المتفق عليها، مكملًا بهذا العمل قاموس فلوبير الذي ترجمته ونشرته في عام ١٩٥٤ بعنوان "الأمكنة العامة".. إني أحاول كل يوم أن أستعيد هذه الحالة من الطهر.. أن أولد من جديد في كل صباح.. لا أدعي أنني أتمكن دائمًا ولكني أحاول.. فأنا كآت لتوه إلى هذا العالم.

رسوت في عالم الأدب منذ أن أحسست بنفسي إنسانًا.. عندما كنت حدثًا اكتشفت أن لي موهبة كذاب.. فبينما كنت أحكي لرفاقي عن قصة قرأتها أو فيلم شاهدته كنت أذهب ممعنًا في الاستنباط، مبدلًا في النهايـــة، مضيفًا شخصيات وأحداثًا، ومغنيًا العقدة، وباختصـــار كنـــت أســـاعد الكاتب.. ساعدت مثلًا "كارل ماي" في "وينيتو" – أفضل كتاب مغامرات قرأته في حياتي– قرأته ست مرات على الأقل. وأحيانًا بأجزائه الثلاثة مرة واحدة، وأنا قادر اليوم على قراءته من جديد.. و"إدغار رايـــس بـــروز" كاتب طرزان.

منذ كنت حدثًا يافعًا بدأت أرى أن الحقيقة أبعد بكثير من الواقـــع. فبالنسبة لي كانت حواسنا ضعيفة ومعوقة وذات مطالات قصيرة: فـــالنظر كان يجب أن يرى عبر الجدران، والسمع كان يجب أن يسمع خارج نطاق طبلة الأذن.

هذا ما حدث في رواية "الطفل في المرآة" التي نشرتها في عام ١٩٨٢ والتي تعكس تجربة طفولتي. لقد اعتمدت فيها مبدأً مناقضًا للمبدأ الشائع، فبشكل عام تتكون الرواية من عناصر الواقع كما لو أنها كانت تصـــورًا، ولكنني قمت بالعكس فاستعملت التصور كما لـــو كـــان واقعًـــا: لقـــد استعملت كل أوهامي الطفولية كما لو كنت قد عشتها.. إنه اسمي، وأسماء أخوتي، واسم أبي، وعنوان البيت الذي ولدت فيه. كان الإطار العام خاصًا بي كأنما هو سيرة ذاتية.

أخبرت كيف كنت غير مرئي وأنا صغير، وكيف تعلمت الطـيران، وكيف تعرفت إلى طرزان، وكيف أوقعت أرضًا "شقاوة" المدرسة، وكيف واجهت ماردًا، وكيف أصبحت بطلًا في كرة القدم، وفي يـوم التقيـت بسيدة قالت لي: "لقد تماديت قليلًا في المغالاة".. كنت قد اخترعت كـل ذلك لأكتشف أنني مازلت ذلك الطفل في أعماقي.

صديق حميم لي في "بللو أوريزنتي" اقترح، بعد أن قرأ الكتـاب، أن نؤسس جمعية من الأطفال القدامى، وعلى غرار جمعية المقاتلين القـدامى، مثلًا، وستكون هناك واحدة في الريو، وأخرى في ميناس جيرايس، وثالثة في بورتو الليغري، وجمعية وطنية وأخرى دولية، كما سيكون لنـا ممثـل في اليونسكو وممثل في الأمم المتحدة.. أما الغاية من هذه الجمعية فممارسـة تلك الوظائف المهمة جدًا التي يتعود الأطفال على أن يمنحوها أنفسـهم: كتبادل الكرة بالأيدي، وتبادل الصور، والعزف على البيـانو، وتقليـد الببغاوات.

أعترف بأن هنالك أمورًا أجدر بالاهتمام من هذا الأمـر، ولكـنني أعتقد جازمًا بأننا إذا تمكنا من استعادة الطفل الذي يعيش فينا، فسـنكون جميعًا متفاهمين أكثر مما نحن الآن.. وسيكون هنالك المزيـد مـن السـلام والرحمة لو تمكن الرجال من أن يعودوا أطفالًا.. وهذا ما يحدث لي من حين إلى آخر.. ففي يوم ذهبت برفقة ايليو بيليفرينو صديقي منذ سن السادسة (وقد توفي في ٢٣ آذار ١٩٨٨)، لزيارة معلمتنا في بللو أريزونتي السيدة ماريا ايزابيل كابرال التي تعيش اليوم في الربو. وقد حولنا اللقاء إلى فتيان

صغار يرتدون القمصان البيضاء والسراويل القصيرة الكحلية كما بــدت المعلمة كأنها في الثامنة عشرة من عمرها فإذا أمرتنا بالجلوس جلســنا وإذا عاقبتنا أطعنا ونفذنا العقاب.

في "السجل الأدبي" الذي تحتفظ به منذ ذلك الحين، كانت هنالــك إشارة إلى حديث أجراه ايليو عن فيكتور هيغو.. وايليو آنذاك في التاسعة من عمره.. وكانت قد دونت في ذلك السجل بعض الأشياء التي كنت قد كتبتها: فلا شيء أكثر أصالة مما كنت قد كتبت، ويمكنك أن تتخيل أنــني كنت، بلا شك أساعد أحد الكتاب.

-٣-

في الثانية عشرة من عمري، أو قبلها بقليل، أصبحت في مرحلة قراءة الروايات البوليسية، فرحت أتعاون مع بعض اللامعين في هذا المجال: "إدغار دالاس"، على الأخص، و"ماركس رومر"، و"اس. فان دين".. وفي تلــك المرحلة اخترعت تحري الخاص: فريد سميث ٢٢ سنة، طويل أسمر، ظريف، يتبختر في لندن وفي يده عصا من الخيزران الهندي ذات قبضة ذهبية.

بعض قصصي البوليسية، بفضل شقيقي جيرسوف، تم نشرها في مجلة "أرغوس" التابعة لشرطة ميناس جيرايس.. أجل.. لقد لمعت في الأدب تحت رعاية الشرطة.

في الوقت نفسه، تستحثني شقيقتي في هذه المرة، بدأت أشــارك في مباراة القصة من إذاعة الريو. كان المذياع في ذلك الزمان بأهمية التلفــاز اليوم. وكانت الإذاعة تمنح جائزة لخمس قصص في برنامج "مــاذا يفكــر

المستمعون". كنت أرسل على الأقل خمس قصص في كل مرة، وكنت أفوز بالجائزة باستمرار تقريباً.. وطبعًا بفضل الكم لا النوع.. فيما بعد ربحت جائزة مباراة القصة في البرنامج نفسه. أما تسمية الشرف فقد نالتها فتاة من سان باولو تدعى ليجيا فاكوندي. حين بدأت أفوز بجائزة كل أسبوع، رحت أستلم مسبقاً المكافأة المالية من مقدم البرنامج في إذاعة بللو أوريزونتي، وهكذا تمكنت من أن أحل مشكلة مصاريف الطعام التي كنت أتقاضاها من والدي.

في تلك المرحلة كنت أدير منشورة صحفية صغيرة تابعة لمدرية ميناس جيرايس الثانوية للبنين، وكنت شديد الاهتمام بدراسة اللغة البرتغالية يستحثني على ذلك الأستاذ كلاوديو براندوا، العالم في الإنسانيات حسب التقليد الشائع في المنطقة والمترجم عن اليوناني واللاتيني، ثم بلغت مرحلة الاهتمام بفلسفة اللغة وأصول الكلمة، وتكون اللهجات، وكدت أصبح لغويًا، ولكي أزداد تضلعًا من اللغة البرتغالية ورغبت في أن أدرس اللاتيني، لكني لم أدرسه قط، بل درست القواعد للمشاركة في المسابقة اللغوية – الماراثون الثقافي– مع ايليو بيليفريني الذي ظل زميلي في المدرسة الثانوية الآن، وتمكننا من أن نفوز بالمرتبة الثانية في كل البرازيل مما كان بالنسبة إلينا المجد كله.

في الرابعة عشرة من عمري قررت أن أكتب قصصًا ذات مستوى أدبي لائق، ورحت أقضي الوقت وأنا أضطهد ماريو كازاسانتا الأستاذ

المساعد في اللغة البرتغالية وأملأ حقيبته بالأوراق وأستنفد صبره بقصصي، مما يجعلني أقول الآن شيئًا في مصلحته وهو أنه لم يقل كلمة سوء واحدة عما كان يجده في تلك الكتابات.. ثم أصبح وضعي أكثر خطورة عندما فزت بتسمية شرف في مباراة القصة التي أجرتها مجلة "بوانوفا"، حيث أن لجنة التحكيم كانت مؤلفة من كبار ليسوا أقل من كارلوس دروموند دي أندرادي، غراسيليانو راموس، أوغوستومير، وألفارو موريرا.

-٤-

في يوم، وبإلحاح مني، قدمني أخي إلى غيليرمو سيزاز الذي كان قد أصدر كتابًا في دار نشر جوزي أوليمبيو: أوج المجد وأولمب الكتاب.. كان يوم أحد. حملت قصصي إلى بيت غيليرمينو والأمطار تهطل بغزارة في ذلك الصباح. وهناك، استرعت انتباهي ثلاثة أمور ظلت راسخة في نفسي: الأول هو قول غيليرمينو لي أنني إذا كنت قد فزت بجائزة أدبية، فلا يعني هذا أن نوعية الإنتاج الأدبي جيدة.. والثاني، بعد أن أقرأ قصصي، هو أنه عمد إلى تناول ثلاثة كتب من مكتبته وأعارني إياها، وهي مجموعات قصصية لموباسان، وميريمي، وفلوبير.. وأما الثالث فهو تلفظه بكلمة "براز" لأن مياه الأمطار كانت قد تسللت إلى مكتبه، وأنا لم أكن أعرف أن الكاتب يستعمل الألفاظ النابية هو الآخر.

كانت الكتب الثلاثة بالفرنسية، ولم أكن أعرف من هذه اللغة غير القليل الذي تعلمته في المدرسة الثانوية، فتدبرت أمري باستعارة قاموس وقرأت مرات عديدة تلك الكتب دون أن أفهم منها الشيء الكثير، ولكني

صرت أسمح لنفسي في اللحظات المحرجة بأن أتلفظ ببعض الكلمات النابية.. وفي كل الأحوال استحق الاكتشاف العناء: إذا كان هذا هو الأدب الجيد فإن أدبي لا يزال "برازًا".

علمني غيليرمينو عدة أشياء، وعندما أعارني بعض دواوين الشعر لأقرأها كانت الفضيحة. بالنسبة لي كان الشعر شيئاً أنثوياً وقراءة للنساء.. ولما قرأت عمر الخيام وطاغور غدوت مشغوفاً بالشعر ومتلهفاً إلى المزيد.

في نفس الوقت كان غيليرمينو قد دعاني للمشاركة في تحرير مجلة "منساجن" الأدبية التي كان مدير تحريرها، وهناك لمع اسمي لدى كتابة مقال هجمت فيه على قاموس أودلينو فريري.. كتبت المقال برهاناً على مقدرتي اللغوية.. كنت في الخامسة عشرة من عمري ولم أكن أفكر في غير أن أصبح كاتباً.

وفي يوم دعاني غيليرمينو في جملة مدعويه إلى حفلة احتفال بميلاد مجلة "مساجن" وقدمني إلى أصدقائه ومنهم مركيز ريبيليو.. كان مرور مركيز ريبيليو في "بللو أوريزونتي" حدثاً، كما لو أن صحنا طائراً كان قد حط هناك. أما أول الأدباء الذين تعايشت معهم فكانوا: ريبيليو جوان ألفونسوس، غيليبيرمينو، سيرو دوس أنجوس، وأميليو مورا.. وكان هناك أيضاً موريللو روبيان الأكبر سنا من أولئك والذي غدا صديقي الحميم – كان ذلك في زمن لاحق – وحين انتقلت إلى التحرير في صحيفة "فولياس دي ميناس" كانوا يتعجبون لسني المبكرة، وكان موريللو يناديني ببنيامين الآداب ميناس جيرايس.

ساعدني ماركيز ريبيليو على نشر كتابي الأول: "الزرازيــر لم تعــد تغني". ويبدو العنوان طويلاً على غرار عناوين ذلــك الزمــان؛ وهبــت الريح.. "كم كان حقيقياً وادي".. "دكتور، هنا قبعتك".. دفعت كلفــة طبع ألف نسخة في "بونغتي" وذلك من حصتي في قطعة أرض كان والدي قد باعها ووزع ثمنها على أبنائه الستة.

عدة مقالات نقدية تناولت الكتاب في الملاحق الأدبية الســائدة في تلك المرحلة، ففي أوج دكتاتورية جيتوليو فارغاس لم يكن أحد بقادر على الكتابة إلا عن الأدب.. حتى أفونسو أرينوس نفسه كتب.. وكان النقــد الرسمي مقرظًا، ولكن أهم انتصار حققاه كان في استلام رسالة بريدية مــن ماريو دي أندرادي متعلقة بالنسخة التي أرسلتها إليه.

-٥-

في جملة ما قاله لي ماريو دي أندرادي في رسالته أنه إذا كنــت قــد تجاوزت الثلاثين فإن شأني هو شأن أي شخص آخر، وإذا كنت دون العقد الثالث فإن المسألة تسترعي الانتباه.. وإذا كان لي من العمر سبعة عشــر عاماً فقد استطرد يقول: "إن شهرتي لن تطبق الآفاق قريبًا، وإن علــى أن أتطور تدريجيًا على مهل حتى يتبين الآخرون في يوم من الأيام أنني كنــت كاتبًا".

أجبت عن الرسالة، مليئًا بالحماس، وبدأنا مراسلة دامــت أربعــين عامًا، واستمرت إلى أن مات في عام ١٩٨٢. قمت بنشر رسائله في كتاب بعنوان: "رسائل إلى كاتب شاب"، مؤمنًا بأنها يمكــن أن تكــون مفيــدة للكتاب الشباب.

كان ماريو رجلاً متعدد المواهب، عالمًا في الموسيقى، ناقدًا فنياً، كاتبًا تجريبيًا، شاعرًا، قصصيًا، روائيًا، فولكلوريًا، وكاتب مسلسلات. أنه علم ونسيج وحده.. وهذا ما لا يفهمه شباب اليوم، ربما، وهم، عندما يرسلون إلى نصوصهم الأصلية ويريدون مني أن أكون لهم نوعًا من ماريو دي أندرادي لا يدركون أنه لا تتوفر في الشروط لأن ماريو كان وحيدًا من نوعه.

ذهبت إلى سان باولو لأتعرف إليه. وكان لي آنذاك ثلاثون سنة أكثر من عمري، وتفاهمنا كأصدقاء. كان يوجهني في كل شيء. كانت تلك دعوته: دعوة رسولية. كما كان يوضع شكوكي المتعلقة بالمفهوم الجمالي، والثقافي، والسياسي، والاجتماعي، وكان ينصحني بأن أكتب كل يوم ويستحثني أن أكون أفضل ما يمكن: "فقط عندما تقوم بمهمة كهذه، فإن الحياة لن تستطيع أن تقتلعك".. قال لي في إحدى رسائله، وضعني على علاقة بالجيل الجديد في سان باولو، ابتداءً من أنطونيو كانديدو وجيلدا مورايس حفيدته اللذين كانا قد تزوجا حديثًا وصرت صديقًا لهما منذ ذلك الحين، ووصولا إلى ديسيو دي ألميدا، ولزرينال غومس ماشادو، ولاورو أشكوريل، وهؤلاء كانوا يشكلون مجموعة مجلة "كليما" التي ارتكبت خطأ نشر تجربة نقدية حول أيسا دي كيروز فالدين، كنت قد كتبتها في العشرين من عمري ولم تكن لي الشجاعة لأن أعيد قراءتها فيما بعد.

كنت أرسل إلى ماريو قصصي الجديدة فكان يعلق عليها بدقة، في التاسعة عشرة من عمري كتبت كتابي الثاني، رواية "الوشم". وكانت حول

مأساة مراهق: الخوف والمحاولة المؤلمة في مواجهة واقع هذا العالم، أخــذت النسخة الأصلية إلى ماريو، وهو، بعد أن قرأها، اعتمد إعادة قراءتها معي، كلمة كلمة، وهو يقوم بتعليقاته. تلك التعليقات ما تــزال حــتى اليــوم توجهني.

كنت أقرأ كل شيء. مجموعة نوبل الصادرة عن دار نشر "كلوبو"، كـ "العبودية الإنسانية"، "لسومرست موم" و"الجبل السحري" لتومــاس مان، و"التيبوت" لروجيه مارتين، و"جون كريستوف" لرومني رولانــد– وكل ما يطالعني من كتب.

في البدء انبهرت ببابيني الذي كان رائجًا: "كلمات ودم"، "غوغ"، وأما "الرجل المنتهي" فقد ظل كتابي المفضل لبعض الوقــت. فيمــا بعــد اكتشفت أن بيراندللو كان أفضل من بابيني، وبسبب انشغالي باللغة كنت أقرأ البرتغاليين: فري لويز دي سوزا، جيل فيســنتي، مــرورا بكميلــو، هركولانو وغاريت. أما في الشعر فمن كامونيس إلى فرناندو، ومن أنتيرو دي كوينتال إلى كميليو بيسانيا. أما القصصيون القدامى فكانوا: فرنــان مندس بينتو، ودياغو باينا دي أندرادي.

اكتشفت في المكتبة الوطنية مجموعة للأدباء الكلاســيكيين بعنــوان "أتينيا" فدخلت من جهة وخرجت من أخرى: هــوميروس، أفلاطــون، رابليه، روسو، توما الأكويني، باسكال، ديدرو.. أشياء كــثيرة لم أكــن أفهمها ولكني كنت أستمر في القراءة.

وكنت أقرأ ترجمات كثيرة عن الأسبانية، وعن أمريكا الأسـبانية- المنشورات الأرجنتينية، والتشيلية، والمكسيكية: فخلال الحـرب لم تكـن تصل كتب من أوروبا. وقرأت من الأسبان: بيـو باروجـا، كيفيـدو، أسبورنسيدا، مارانيا، مينندز، غارسيليو دي لافاغا، رامـون غـوميز دي لاسيرا.

أما من البرازيليين القدامى فمن فرضهم عليه الواجب، ايكليدس دا كونيا وبنوع خاص ماشادو دي أسيس. ومن المعاصرين الـذين بـدأت قراءتهم: "شميث" الرائع "عندما يكون المرء موها"، وماريو دي أنـدرادي، مانويل بانديرا، سيلسيليا ميريلس، موريللو مندس، جـورجي دي ليمـا، فينسيوس دي مورايس، ولا نتكلم عن كارلوس دروموند دي أنـدرادي الذي أصبح فيما بعد شاعر حياتي كلها.

أما الروائيون فهم: جوزيه ليتر دوريغو، غراسيليانو راموس، جورج أمادو، ماريو أي أوزفالدي دي أندرادي، ثم طلع أفضلهم غيمارايس روزا. وكنت أقرأ أيضًا لوسيو كاردوزو، كورنيليا بينا دون التكلم عن السخرية في الأدب الذاتي مع سيرو دوس أنجوس الذي كان ظاهرة: كـان هـؤلاء كتابًا يعالجون المواضيع الوجودية: العزلة، عقـدة الخطيئـة، والإيمـان، والجنس، والندم والتكيف المناقبي.

ترجم إدغار دا ماتا ماشادو رئـيس تحريـر جريـدة "أوديـاريو" "مذكرات كان ريفي" وأصر عليّ أوتو أن أقرأ في الحال، لأني كنت أخاف

أن أموت قبل قراءته.. وقرأت برنانوس وجوليان غرين ومورياك إلى أن بلغت دوستويفسكي النبع الأصيل لكل هؤلاء.

عندما اكتشفت دوستوفسكي، كدت أتخلى عن الأدب، فكل ما كنت أرغب في كتابته كان هو قد كتبه.. بالإضافة إلى تولستوي وسرفنتس.. كتب ضخمة وقراءات لا تنتهي.. بالنسبة لي كانت ذروة الرضى الأدبي تقوم على أن أستطيع القول أنني قرأت "الأخوة كارامازوف"، و"دون كيشوت"، و"الحرب والسلام".. ثم انبهرت باستندال.. أما من الأمريكيين فقد قرأت: همنغواي، سكوت فيتزجيرالد، سينكلر لويس، دريزر، فولكن، وجون دوس باسوس.

بعيدًا عن الرواية كان الشعر، فبالإضافة إلى الأسبانيين، مايكوفسكي في ترجمات عديدة، وهناك الفرنسيون: فيرلين، ريمبو، بودلير.. والإنكليز: بلاك، دون بيتس، وورد سويرث، مانلي هويكنز.. وكان هنالك أيضاً التجريبيون: كير كغارد مفتاح القلق واليأس الإنساني، وتوما الأكويني، بيرغسون، وماريتان بتوافقيته الإنسانية، وكان هؤلاء يمثلون لي اليوم: لاهوت التحرر.

كنت أعيش محشوًا بالأدب من الداخل ومحاطًا به من الخارج، كما قال لي ماريو في إحدى رسائله. وكنت أتسلى بتشكيل فرق كرة قدم من الكتاب ففريق الروائيين الروس، مثلًا، كان فريقًا يستطيع أن يواجه فريق الشعراء الإنكليز.

من الصعب جدًا وضع لائحة بأسماء الأدباء الذين أثروا فينا. فكل ما نقرأه يؤثر فينا بشكل ما، حتى وإن يكن الهدف تعلم ما لا يجب أن يكتب أو يفكر فيه. ولكن هنالك خطاً رئيسيًا دراماتيكيًا يبدأ بالرواية الروسية: دوستويفسكي، وهناك خط آخر، خطير، مثير للشك بروحه الساخرة: ماشادو دي أسيس.. وخط آخر يشير إلى مجموعة مرهفة في علم النفس، مع الحرص على كمال العمل الفني: هنري جيمس.

ولكن هل هناك اليوم من يهتم بهؤلاء؟ في المكسيك، ذهبت يومًا لزيارة أوكتافيو باز، واكتشفنا أننا كنا نتكلم عن أدباء انقطعنا عنهم، كطفلين يتبادلان الصور.. هل لديك هذا؟ لدي! وهذا هنا، هل لديك؟ فنحن منتسبون إلى طائفة خاصة، ودين خاص هو التعبد لرجال الأدب.. إنها النماذج الأخيرة لنوع هو في طور الانقراض، كما قال بازوليني.

-٦-

في رواياتي، أطمح في أكثر من هذا؛ ففي "الموعد المضروب"، مثلًا، اتخذت من حياتي الشخصية موضوعًا.. كل رواية، هي سيرة ذاتية. وكنت كتبتها في لحظة حاسمة بالنسبة لي.

في الثلاثين من عمري وصلت إلى فراغ. كنت بحاجة إلى أن أعرف مع من أتعامل، حتى أبدأ، في النهاية. كانت الرواية نوعاً من "تطهير الذات" لم تكن لدي إمكانية للتفاعل والتعايش مع الآخرين إذا لم أكتب ما عشته حتى ذلك الحين كان هناك "موعد مضروب" مع نفسي.. هي إذا رواية تعمدت أن تكون سيرة ذاتية ولكنها سيرة مكتوبة بمتطلبات تقنية،

كما يمكن أن يتأكد من ذلك من قرأها. كنت أطمع في أن أكون، كما أطمع الآن بالذات، روائيًا، وأنا أكتب عن الثمن المفروض ليمكنني من أن أعيش في تلك اللحظة، الثمن الذي يدفع ليصبح الإنسان رجلًا، والذي هو فقدان البراءة، كنت قد استعملت مخيلتي كثيرًا.

لا شيء يضاهي الحلم لإعطاء فكرة عن المفهوم الأدبي، في الحلم، وأنا لست فقط، نفسي، بل أنا أيضاً منزلي، أمي، أبي، زوجتي، الكلب، والهر، وكل ما يمكن أن يظهر في الحلم "الهر هو أنا"– كما يقول الآخر.

أستطيع أن أكون النموذج الوحيد لإدورادو مارسيانو، الشخصية الرئيسة، ولكنني لا أحدد نفسي به، فأنا الكتاب كله، هنالك فروقات جوهرية بيننا نحن الاثنين، فأنا من عائلة مؤلفة من ستة إخوة، وعزلتي لم تكن إلا عزلة الصغير.. أما هو فكانت عزلته عزلة الابن الوحيد التي هي أكثر تأثيرًا: وهنالك فرق آخر يبدو لي مهما: فأنا كتبت عنه كتابًا – وهو، على الأقل حتى الآن، لم يكتب أي كتاب عني.

هنالك من يعتبر "الموعد المضروب" رواية جيل بكامله. بالنسبة لي هي رواية تجربتي الشخصية. ولكني جزء من جيل، ومن الطبيعي أن تنعكس مميزاته على الشخصيات التي أعدت خلقها على صورتي ومثالي.

لقد تم طبع ستين (٦٠) طبعة تقريباً من هذه الرواية منذ أن نشرت للمرة الأولى، وبمعدل طبعتين في العام، وهذا مما يثير دهشتي أنا قبل أن يثير دهشة أي امرئ آخر. ولكن لاهتمام الأجيال الجديدة بهذه الرواية تفسيراً وهو أن مشاكل الشاب في تحقيق نفسه وفي إدراك الرشد كانت دائماً

وستبقى، تقريباً، هي نفسها، وفي هذا العمر فإن لكل امرئ "موعدًا مضروبًا" مع نفسه.

على كل، استغرقت كتابة الرواية سنتين، وكان عليّ أن أعيد كتابتها ثلاث مرات. لقد مررت بمتاهات عديدة لا مخرج منها، وكتبت ألفًا وثلاثمائة صفحة لأبقي على ثلاثمائة وعشرين منها، وأحيانًا كنت أضيع عشرات الصفحات، كما هي حال ابنة ادوارد وأنطونيتا، والتي، فقط عندما كبرت وأصبحت شابة اكتشفت أنه كان يجب أن تولد ميتة.

ليس أشق عليّ من التفتيش عن اللفظة المناسبة، وعن الخاصية اللغوية. فهنالك ألف طريقة لتقول شيئاً ما، وطريقة واحدة فقط هي الصحيحة.. قضيت ثلاثين سنة كاملة لأجد النهاية الصحيحة لرواية "اللص الصالح".

أعتقد بأن الكتابة هي، في الأساس، الإتلاف، إتلاف الزائد، وتجنب التكرار، والأصداء، والأحداث المتشابهة، والأمكنة العامة المشتركة، وعلى الأخص المبالغة، وكما يقول أوتو (أو أونامونو، لا أذكر): من الضروري ألا تشك في ذكاء القارئ.. إن لديّ الانطباع بأن القارئ، إما أن يحترمني جدًا، وإما أن يمعن في الاحتقار لأدبي، لو علم ما يكلفني العمل الذي كتبته: مما استغرقه هو من دقائق ليقرأه فإنه يكلفني أيامًا، أشهر، وأحيانًا سنوات كاملة لأكتبه.

أن تكتب، جيدًا أو رديئًا، فمسألة تغدو في كل مرة أكثر صعوبة.. إن لدي صعوبة في كتابة بطاقة شكر أو برقية تعزية.. في إحدى المرات كان

أوتولارا ريسندي يحرر مقالا عندما دخل أحد زملائه ورآه يضرب علـــى الآلة الكاتبة دون أن يكتب شيئًا، فتعجب الزميل:

- خير. أستاذ هل عندك أسلوب خاص في الضرب على الطابعة؟

- المشكلة أنني أعرف كل شيء عن ظهر قلب- أجاب.

أوتو صاحب ميزة خاصة، فهو بالإضافة إلى الموهبة الأدبية التي وهبها الله له، كان صاحب أسلوب خاص، وبالرغم من هذا كان يحس بنفســـه مضطهداً عندما يكتب. وعلينا أن نتعزى بما قاله باولو مندس كـــامبوس.. "من لديه السهولة في الكتابة ليس كاتباً بل خطيبًا".. وقال ترومان كابوت بهذا المعنى أن الله عندما يمنحك موهبة فهو يمنحك معها سوطًا تســـتخدمه فقط لتجلد نفسك. وأكد:

- كنت أتمتع كثيرًا بالكتابة. وقد توقفت عن الاستمتاع عندما اكتشفت الفرق بين الكتابة الجيدة والكتابة الرديئة. ثم اكتشفت شيئًا هو أكثر أهمية: إن الفرق بين الكتابة الجيدة والفن الحقيقي في الكتابة هو فرق جائر، وهنا يدخل السوط.

في رأي باوند أن الكاتب الجيد هو الذي يحافظ على هويـــة فعاليـــة اللغة، الكلمة هي التي تفعل الحركة. بالنسبة لي، الكلمة هي الوسيلة لنقل الفكرة أو الشعور، وليست غاية في حد ذاتها، ومع ذلك يجب أن تكـــون شفافة وبهية.. في اللحظة التي يجب أن أختار بين تعبيرين فـــإني أســـتخدم التعبير الأسهل. إن قواعد الأسلوب، بالنسبة لي، مازالت هـــي نفســـها: وضوح - بساطة- وأداء.

إذا، أين الإبداع والوحي في كل هذا؟ يجب أن تكون الكتابة حرة، نقية، عفوية كالطفل.. هنا لا يجب أن يتدخل أي قلق، ففي الوقت الـــذي تريد أن تعرف فيه كم هي الساعة ليس عليك أن تفتح داخل ساعة يـــدك لتعرف كيف تشتغل العقارب.. كل شيء يمكن أن يحدث عنـــدما يجلـــس الكاتب أمام ورقة بيضاء.. ولكنه لا يجب أن يلجأ إلى الخداع، أن يلعـــب ليخسر أو ليربح. إنها ساعة الحقيقة ساعة اللقاء مع الذات، التي تكلمـــت عنها.

-٧-

ليست الكتابة بحد ذاتها ألمًا بل موجبا. إن الأدب لا يعيلني بـــالمعنى الاقتصادي وحسب، بل بالمعنى الوجودي. وبالأدب وحـــده أســـتطيع أن أدرك البعد الحقيقي لذاتي، وأن أتقدم للحساب أمام الله.. إن ما أفتش عنه وأنا أكتب هو معرفة من أنا.. أكتب لكي أكون بحجم هو حجمي الحقيقي ككل إنسان يجب أن يكون ما هو: لا أكثر ولا أقل.. أريد أن أعطي أفضل ما لدي وأن أذهب إلى أقصى ذاتي. لا أريد أن أذهب إلى أبعد منها، ولكني أيضًا لا أريد أن أبقى دونها. هذا هو هدفي من الأدب والحياة.. وإذا أردت أن أضع كشفًا لحياتي الأدبية أرى أنني في كل ما كتبت لم أفعل أي شـــيء سوى أنني كشفت عن نفسي، وعرضتها عارية، ورويت ما عشت، ومـــا شهدت به، وما فكرت، وما حدث فعلمت به ورأيته دائماً عبر طريقتي في التخيل وأسلوبي في إعادة خلق الواقع.

في إحدى قصصي الثلاث "السكين ذات الحدين"، كان أحد كتاب القضاء وهو يلعب الشطرنج مع مفوض الشرطة قد سأل: ما إذا كانت رقعة الشطرنج السوداء سود بمربعات بيض أو بيضاء بمربعات سود. أجاب المفوض بأنها بيضاء بمربعات سود. أما الكاتب القضائي وهو شرطي متقاعد فقال:

- لا.. إذا هي سوداء بمربعات بيض.

وأجاب الكاتب القضائي:

- أيضاً لا. أنها ذات لون آخر بمربعات بيض وسود.

أردت بهذا أن أبين أن تحت الواقع البادي للعيان واقعاً آخر هو الحقيقة. وهي، هذه الحقيقة، بطريقة ما، ما أردت بلوغه في هذا الكتاب، ولم أفلح طبعاً، لأنها حقيقة أبعد من الواقع ولا يمكن بلوغها إلا بالمخلية والحلم، ولكي يصبح ممكناً، بواسطتها، استعادة الوجه السابق على تجربة الخير والشر، السابق على الخطيئة الأصلية: وهو استعادة البراءة المفقودة منذ اللحظة التي تحقق فيها الرجل والمرأة من ثمرة شجرة الحياة. بهذا المعنى، تبدو الرمزية الدينية تحديداً كاملاً: لقد خسر الإنسان الجنة وتوجب عليه أن يأكل خبزه بعرق جبينه.. وانفك ارتباط الإنسان بالخالق وتاه "الإنسان" في عالم رسا على اختراق القانون.

إن انتهاك القانون هو الكتلة المطاطية في الروايات البوليسية، إلا أن الرؤية البوليسية تحدد نفسها انطلاقاً من وجود جريمة يقتضي معها الأمر الكف عن المجرم. إنها تكاد تكون معادلة، علماً أنها لا تتم أحياناً بصورة

أدبية جيدة، وهي آداب متشابهة، كما قلت سابقاً، إنها "جزء" مختلف في "كلية" الأدب.. لقد سعيت شخصياً إلى الانطلاق من مجرمين محتمل وجودهم، واكتشاف ما يمكن أن تكون جرائمهم، وما يمكن أن يكون خطأهم، وأين هو انطلاق القانون في ما ارتكبوه، ولكن ليس من زاوية قانون العقوبات بل من زاوية القانون المناقبي.

بهذا المعنى ليس من شيء أكثر دلالة من الغموض، ومن الثنائية في تفسير القيم والمفاهيم، وكذلك هو التناقض في تصرف الرجل مع المرأة وبالعكس. إنه لأمر محرج حقاً أن تكتشف لماذا يبقى الرجل والمرأة غير متفهمين الواحد للآخر خلال المغامرة الزوجية حتى وإن كانا متحابين، فيذهبان في عدم تفهمهما أحياناً من الكذب إلى الخيانة ومن الخيانة إلى الجريمة.. هذا هو معنى "السكين ذات الحدين" بالنسبة لي، فغموض الكائن البشري متأت عن انفصاله عن أصله الإلهي.

في اللحظة التي ينفصل فيها الإنسان عن القوة العلوية يصبح سلوكه غامضاً ونحن، طيلة الوقت، نشارك القوة العلوية في حياتنا اليومية. كل دقيقة مفاجأة، وكل ثانية حياة بكاملها، وكل شيء سراب.

والأدب هو أيضاً قوله، فكونه عملاً إبداعياً فهو عمل قائم على الحب.. وكونه قائماً على الحب فلابد من ممارسته بواسطة الطرف الآخر.. الكاتب هو رجل وحيد أمام الورقة البيضاء يحاول أن يطرد شياطينه: شيطان الوحدة، وشيطان عدم الرضا، وشيطان التفتيش عن شيء لا يعرف ما هو. إنه كمن يحاول أن يستعيد تجربة حلم بها أو عاشها في حياة سابقة،

إنه يبدأ من لا شيء، ويرى لأول مرة، ويحاول أن يشق طريقاً وأن يفتش في الظلام.. لكنه عمل لا يتحول إلى رذيلة وجدانية ذاتية، لأنه عندما يكتب فإنه يعيد رباط صاحبه بأمثاله، ويتوصل به إلى إعادة الاتصال بالآخرين وإعادة نفسه بالتالي إلى الجماعة التي ينتمي إليها – إلى الإنسانية كلها.

إني أوافق همنغواي حين يقول أن كل علاقة شخصية بين الكاتب والقارئ تولد من التباس ما أو أنها تؤدي إلى التباس.. أعترف، وكأنه قدري، بأنني ضحية دائمة للالتباسات.

مرة أخرى، منذ أيام، ذهبت أسجل اسمي في فندق في باراتي، وعندما رأت الفتاة اسمي سألتني إذا كنت أحد أقرباء الكاتب، فأجبتها بأنني أنا نفسي الكاتب. فقالت:

– وأنت تكتب أيضاً؟

فأريتها رسمي على غلاف أحد كتبي، فاكتفت بأن تقول باستخفاف:

– إنك حتى شبيهه، أليس كذلك؟

في النهاية، عندما بدأت تصدق راحت تحدق في كما لو كنت شبحاً غامضاً وسألتني وعيناها زائغتان:

– إنك لم تمت، أليس كذلك؟

وكدت أعتذر لها لأنني مازلت حياً.

في إحدى قصصه يقول "جوان أوبالدو" بأن لي شكلاً مافياويـــاً. إني أوافقه. وأكثر من هذا أؤكد أن هذا الشكل يفيد أحياناً، ففي الولايـــات المتحدة راج حولي تعليق أفادني: "السيد سابينو، هناك، بشكل عام، هـــو كوسا نوسترا" فيما يتعلق بالشكل لا أبدو كاتباً وأعتقد بأنه ينقصني المظهر الخارجي المناسب للمهنة. وقد فكرت بأن أبدل مواصفاتي، ولكن زوجـــتي كانت لي بالمرصاد، إنها ترى أنني كما أنا إنما أتصف بما فيه الكفايـــة مـــن الخراب اللازم.

أما ما هو متعلق بالالتباسات الناتجة عن اسمي الذي تحمله أيضاً إحدى الأسواق الراقية في أوبيرابا، ودون أن أكون مسؤولاً عن أي شيء، قامت هناك موجة من الشتائم ضد عائلة سابينو مما جاء ليضيف التباســـاً علـــى الالتباسات..

وبالتالي، فإني أكتب منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمري أي منذ خمسين سنة، ومن الطبيعي لفتاة في الثامنة عشرة، عندما تسمع بـــاسمي، أن ترى أن هذا الاسم قد تحول إلى إشارة مرور مقلوبة في الشارع.

وأخيراً.. في أحد امتحانات القبول في كلية الآداب اعتبرت ميتا، أن في رأسي جانباً غليظاً مغلقاً على الإدراك هو الذي يحملني على تبديل أسماء الأشخاص، والمزج بين الثوم والنوم، والخلط بين جوزيه جيرمـــانو (Jose Germano) والصنف البشري (Genero Humano). وأنا قادر على أن أحيي عدواً كأنه صديق قديم. (الحمد لله فأنا على ما أعلم لا خصوم لي، والقلة من الذين أخذت علماً بخصومتهم لي قد تلطفوا علي بأن ماتوا).

وللترفيه عن نفسي أستطيع أن أرتاد لمدة أشهر مشــربا شــهيراً في تاريخ الإجرام، كما حدث لي في نيويورك، فهناك اعتدت أن أرتاد مشــربا مجاوراً لمترلي عند ملتقى الجادة الثامنة بالشارع ٤٢، دون أن أدري أنــني كنت في المقر العام لإحدى العصابات. ولم أكن لا أعلم بكل هذا لو لم يبدأ تبادل الرصاص فجأة وكان علي أن أخرج برهة واحدة قبل أن يــوافقني الأجل.

عليّ أن أعترف، موافقاً، أن التباسات من هذا النوع تواجهني أكثر بكثير مما أرغب، كما حدث لي في طوكيو منذ فترة وجيزة، مع زوجتي. كنا قد حللنا في فندق نيو أوتاني العملاق، وهبطت إلى أسفل للحصول علــى بعض قطع الثلج حيث وجدت صعوبة قصوى في العثور على طريق العودة أخيراً عندما وجدت غرفتي التي كنت قد تركت باها نصف مفتوح دخلت لأواجه امرأة يابانية جالسة فوق أريكة المكان الذي تركت فيه زوجــتي، وقد رحت أفتش عنها في الحمام ولما لم أعثر عليها بدأت أحترز لخطأ ما في ما حدث. أمام نظرة اليابانية الأكثر اندهاشاً مني خرجــت وأنــا أنحــني "بالسلامات عليكم"، وتأخرت في العثور على الغرفة الصــحيحة، بينمــا ليجيا وقفت محتارة من أمرها عندما أخبرها بأنني نسيت وعــاء الــثلج في غرفة يابانية.

ومرة أخرى، ودون أن أعي الخطر الذي يحدق بي، توصــلت إلى أن أقول لمن يسطو عليّ وفوهة مسدسه في رأسي وهو يسرق سيارتي، أنه إذا

كان يزمع على ترك السيارة بعد استعمالها في مكان ما فليتفضل بتركها في شارع معروف ومن الأفضل أن يكون الشارع في المنطقة الجنوبية.

ما سبق يعني أنني منفك من كل شيء ولكنه لا يعني أبداً الشجاعة.. إني أخاف حتى من ظلي. أخاف من الفأر، واللص، والظلمة، والاستيهام والشيطان أما التجهم فلا نتكلم عنه، ولكن كوني جاهلاً فإني انتهي إلى ألا أخشى شيئاً.. وكوني على غير صلة بالأشياء فأمر يحميني، إن الله يحمي الأبرياء.. ومسكين من يعرف لأن عليه أن يدفع غالياً جريمة معرفة القليل. من الأفضل إذاً ألا تعرف. إن البريء محروس، ويكفيه الإيمان هذه هو مقولة بطرس: "لقد شك ذو المعرفة فانتهى غرقاً".

-٨-

أحياناً أشك، ولكني أؤمن بالله.. المشكلة هي في أن أفعل حتى يوثق بي. درست التعاليم الدينية ولم أصبح بارعاً فيها لسبب واحد هو أنني لم أكن أفهم تلك التعابير اللاتينية. لم أتلق في طفولتي أي توجيه ديني ولم أدرس قط في مدارس دينية، ولكني استمررت دائماً وبقناعتي الشخصية، مؤمناً برحمة الله.. أؤمن بأن الله لا يهمل من لا يهملونه – ولهذا بالذات وبإشارة حسنى إليه – فأنا لا أهمله – ولأن الله، في رأيي، إذا لم يكن موجوداً فإن هذه الحياة لا تعدو كونها عبودية، فلماذا الحياة في مثل هذا الحال؟ سيكون خطيراً جداً أن تكون حياً، لأن الحياة تسيء إلى الصحة، وتجعلك تشيخ، وتسبب لك التجاعيد، وتصيبك بالعمى، وتهاجم الرئتين والكبد والقلب. إذا لم يكن الله موجوداً، فأية مزحة سمجة هي المزحة التي

وضعتنا في هذا العالم؟ إني رجل إيمان.. وإيمان صالح.. وأثــق بــالآخرين ولست رجلاً ذا طالع سعيد وحسب بل وأحمل السعد للآخرين. أن الأمور تسير معي دائماً بصورة أكيدة، لأنه كل ما يحدث هو جيد بالنسبة لي.

إن المتفائل، كما تعوَّد أخي جيرمون أن يقول، إنما يخطئ بقــدر مــا يخطئ المتشائم، ولكنه لا يتألم مسبقاً. ومن الضروري الاعتراف بأنني بدأت أن أكون محظوظاً عندما بدأت أتخلى عن شيء أريده، لا أعرف ما إذا كان كونفوشيوس هو الذي قال: "هنالك عدة طرق للحصول على شيء مــا، وطريقة منها هي في التخلي عما تريد". إني أحصل على كل مــا أريــد، مادمت في أعماقي مستعداً الآن أعترف بأنني لا أريد المزيد. عندما يصــر أحدهم على الحصول على شيء، وبزخم كبير، فمن الضروري الحذر، لأنه يستطيع في النهاية أن يحصل عليه.

في يوم قال لي أخي الأكبر:

– هل يهمك أن أقول لك شيئاً لا تحب أن تسمعه؟!

سألته بدوري، لماذا عليه أن يقول لي شيئاً لا أحب أن أسمعه.

– لأنه مهم، ولأن واجبي، كوني أخاك، يقضي بأن أقوله.

– هل يمكن ألا تقوله؟

– أن يمكنني ذلك، يمكن.. ولكن...

عندئذ أجبت بأنه يهمني، أجل، ولكني أفضل ألا تقول مادمــت لا أحب أن أسمع. وإذا كان واجبك أن تقوله فالمشكلة هي مشكلتك أنت، لا مشكلتي، ولم يقل شيئاً.

حتى اليوم لا أعرف ماذا كان يريد أن يقول؟ لم يكن مهماً إلى ذلك الحد لأنه لم تترتب عليه أية نتيجة، على الأقل، هذا ما أعرفه.

في مرحلة من المراحل كنت أغذي تصوراتي في أن أصبح لا راهباً فحسب بل ناسكاً. ولكن هذه الميول لم تلبث أن تلاشت عندما اكتشفت أنني لا أمتنع عن شيء من الرفاهية. على الأقل ذلك الحد الأدنى من الرفاهية التي يجب أن تتوفر لكل شخص، والتي كما قال توما الأكويني، بدونها تصبح الفضيلة مستحيلة.. في حالتي أذهب إلى أبعد من هذا: إنها رفاهية إمكانيتي على تغيير قميصي كل يوم، وعلى امتلاك المال اللازم لمصاريفي، لشراء كتاب، أو دفع سعر كأس ويسكي. وكما يقول روبين براغا، أن الحسنة التي يعطيها المال هي حسنة عدم الحاجة إلى التفكير في المال.

أعرف جيداً أن لا أحد يصدق أنني لا أشتري أبداً ورقة يانصيب أو قسيمة مراهنة على مباراة رياضية حتى لا أجازف بأن أربح. إذا ربحت فستكون الكارثة. أحب المال ولكن ليس بكمية كبيرة. سيكون عليّ أن أفكر بما أفعل فيه، وأن أغيِّر نمط حياتي، وأعتقد أنني إذا ربحت فسأمنح كل ما أربحه إلى جمعية خيرية إذا قبلت بأن تفعل معي خيراً بإعالتي مادمت حياً. ولكنت أفعل ما أريد مثل ذلك الحمار الذي لا ذيل له والذي أكد أنه لو انتخب ممثلاً للحمير فإنه لن يجر العربة الأولى إلا في الثالثة بعد الظهر، وأعتقد أنني لن أغير شقتي، ولكني سأعطي أمراً بهدم العمارة التي تصد نافذتي وتمنعني عن رؤية البحر، عندما أسافر فسأستمر بالنزول في الفنادق

نفسها التي أستعملها، ولكني سأدفع المال اللازم وكل ما يطلبه المدير من أجل دفع حائط الغرفة قليلاً إلى الوراء، ولنترك الباقي حتى لا يبدو الأمر جنوناً.

الآن، وفيما هو متعلق بمبادئ الحياة، فإن لدي منها الكثير. إن والدي، الذي كان فيلسوفاً على طريقته كان يعلمني منها مبدأ عملياً في اليوم. كان رجلاً بسيطاً ذا مطامح قليلة، وبالرغم من ذلك، أو بسبب ذلك، كان ذا مزاج طيب.. وانتهى إلى أن يكون كمستشار للمدينة، يستشيره الأصدقاء، والمعارف، والمجهولون، ابتداءً من رجال الشارع وصولاً إلى المحافظ، هذا لتشاجره مع زوجته، والآخر لتسلمه صكاً بلا رصيد أو لإعطائه مثل هذا الصك.

إن مبادئ الحياة وفقاً للحكمة القديمة في منطقة ميناس جيرايس هي: "لا تخطُ خطوة أكبر مما تستطيع قدماك".. "نم في القاع حتى لا تقع من السرير".. أما مبادئ أبي التي أوحيت إليه عبر أحداث الحياة اليومية: "الأفضل أن تعيش أزمة الآن، من أن تعيش هماً طيلة العمر".. "قبل أن تدخل فكر كيف ستخرج".. "ما لا حل له، قد حل".. "إن الأشياء هي كما هي، وليست كما يجب أن تكون".. وكان أفضل ما سمعته منه في يوم كنت مسترسلاً للحزن: "يا بني، لكل شيء في النهاية، نهاية وإذا لم تكن له نهاية فلأن النهاية لم تصل بعد".

-٩-

انتهيت إلى التصديق بالجمهورية الجديدة.. في البدء كنت قد أصبت بخيبة أمل ككل الناس. آمنت بخطة "كروزادو"، ومازلت مؤمناً بأنها لو

طبقت بإتقان لأدركت غرضها.. ولكنــها أفــادت في تحســس المأســاة الشكسبيرية التي عاشها ساربي دون أن يدري.

كانت لي علاقات طيبة بساربي.. وكنت قد التقيت به عدة مرات في تلك الأزمة المضطربة في بداية الستينات. وفي يوم مــن عــام ١٩٦١ أو ١٩٦٢، لا أستطيع أن أجزم بدقة، رحنا معاً لنقضي الكارنافال في أراشــا مع مجموعة صغيرة بدعوة من ماغالياس بينتو الذي مازال حاكماً. وباقتراح اقترحه جوزيه أباريسيدو الذي كان موجوداً هناك ذهبنا إلى عرَّافة تقرأ في الورق.. وقرأت في الأوراق أن ساربي سيصبح رئيساً للجمهورية. في ذلك الزمان كانت نبوءة العرافة تبدو شيئاً شبيهاً بقولهــا اليــوم أني سأصــبح إمبراطوراً للصين.

وهنا أرغب في أن أتناول بالحديث قليلاً قناعاتي السياسية التي هــي من أكثر القناعات بساطة، وأستطيع أن أختصرها مكرراً تحديد كامو الذي رفعه شعاراً للمعركة: أني أؤيد سياسة تتحقق بها مثل العدالة للجميع دون أن تقلل من الاحترام للحقوق الأساسية للفرد.

نعم إني مثالي، أنتخب الحزب المعارض بشكل عــام. لا أشــتغل في السياسة ولا أصنع من أعمالي الأدبية عربة للدفاع عن النظريــات أو أي نوع من التنظير.. أن مساهمتي في السياسة ككاتب هي مساهمة متواضــعة وتتحدد بما هو مكتوب.. أعتبر أنني أنال أجراً عظيماً إذا تمكنت مــن أن أخلق ابتسامة فرح على وجه أحد، أو أن أسبب له بدمعة شفافة.

إن مهمة الكاتب هي الكتابة، وبطبيعتها هي الاحتجاج.. لقد كان أفلاطون على حق عندما لم يسمح بوجود الشعراء في جمهوريته، فمعهم لن تسير الأمور في مسارها الأكيد، لكل واحد طريقته الخاصة والكاتب يجب أن يحتج ويعارض ويرفض ويتمرد ضد المظالم الاجتماعية والعنف المرسخ وضد تشويه الفكر والأحكام المسبقة والأنظمة المركبة لتقوم على أسس أخرى، لهذا بالذات أفضل ألا أشترك ككاتب في الجمعيات الراقية والأكاديميات الأدبية والفنية، والتحالفات الحزبية، والمؤسسات المهنية.. وأخيراً في أية مؤسسة من المحتمل أن توقع اتفاقيات قد تتناقض أو قد تحد من حريتي في الإبداع، كوني كاتباً فأنا فرداني. إني أثني على صيحة باسترناك المأساوية التي أطلقها إلى الكتاب في عام ١٩٣٦ عندما دعوه للمشاركة في مؤتمر دولي في باريس: "رجاء لا تنظموا أنفسكم".

إن على الكاتب واجب معرفة مشاكل زمانه وعليه أن يدافع عن الحقوق الإنسانية، ولكنه سيكون حراً أكثر بكثير إذا تمكن من المحافظة على استقلاليته.. وأنا لا أدعي أنني هكذا على وجه الدقة ولكن هذا ما يجب أن أكون.

في السادسة عشرة من عمري بدأت أعي أنه لا يجب أن أستمر في العيش على نفقة أبي. كان يعمل في التجارة ويملك مكتباً صغيراً للوكالات التجارية داخل المنزل.. لم يكن فقيراً ولكن إمكانياته المادية كانت متواضعة. عندما توفي، عثرت في مكتبه على سجل الحسابات وفي الصفحة الأخيرة منه كان يدون ميزانيته الشهرية: مصاريف ٦٣٠٠- مداخيل

٦٦٠٠ وأضاف على هامش الصفحة ملاحظة أثرت في عميقا: "الحمد لله".

كان شخصاً أبعد ما يكون عن المرارة. كل صباح، بعد أن يحلق ذقنه، كان يمازحنا بقوله وبمزاجه الجيد:- "يوم بالناقص". ثم يستمر بمداعبته:

- يا بني، لقد ولدت عارياً، ها أنت مرتد، وقريباً تبدأ الكسب.

وفي الثالثة عشرة من عمري كان والدي يعلمني العمل فيكلفني بتفريغ سلات المهملات وبتنظيف مكتبه حتى أستحق طعامي، وعندما بلغت السابعة عشر أستحصل لي على وظيفة في سكرتارية وزارة المالية الواقعة قبالة بيتنا، لقد كنت بحاجة إلى وظيفة أياً تكن.. كان يمكن أن تكون تدرباً في صيدلية الحي.. ولكن لم تكن في حينا صيدلية بل دكان يملكها السيد سيمون مكتوب عليها: "مشرب منيون".

كان أصدقائي يعملون أيضاً. ايليو بيللغرينو الطالب في الطب كان موزعاً لنماذج طبية على العيادات الاستشارية، وكنت أعيش أيضاً من بيع ساعات الجدران الكهربائية التي كان وكيلها يوكل بها إلي.. وكان صديقي اوتو لارا ريسندي يعطي دروساً خصوصية إلى جانب وظيفته في سكرتارية وزارة المالية نفسها.. كما أن باولو مندس كامبوس كان موظفاً في سكرتارية وزارة الصحة، وكما هي الحال دائماً فإن الوظيفة لم تكن تعنينا بشيء.

كان علي أن أعد الجداول المتعلقة بالضرائب، وكنت أقوم بإعدادها في يوم واحد من الأسبوع وأقضي بقية الوقت وأنا أقرأ الكتب التي أفتح

الواحد منها في داخل الجر كيلا يراني أحد. مساء، ولدى انتهاء الدوام كنت أتناول أحد الجداول وأضعه على مكتب المسؤول قبل أن أغادر، وأحياناً، كنت أترك سترتي خلال الدوام فوق المقعد وأخرج إلى الشارع كما لو كنت ذاهباً لتناول القهوة، وأذهب إلى البيت فأرتدي سترة أخرى وأمضي لإجراء تحقيق رياضي ما لصحيفة "فولياس داس ميناس" أو لإجراء تحقيق مع خباز ما لمجلة "بللو اورزونتي".. بعد عدة أيام كانت المجلة ترسل إلى المخبز أحد موظفيها ليطلع الخباز على المادة وليحاول، في حرارة الحماس، أن يحصل على إعلان منه.

كنت أتقاضى مرتب الحد الأدنى، وتمت ترقيتي إلى موظف رسمي أعلى درجة في مكتب سكرتارية وزارة الزراعة بعدما خطبت بنت المحافظ وأنا في الثامنة عشرة من عمري.. وحين تزوجت تم تعييني كاتباً قضائياً في قصر عدل ريو دي جانيرو إلى حيث انتقلت في اليوم نفسه.. تم ذلك التعيين بطلب من والد زوجتي إلى جيتوليو فارغاس، وكنت ضد جيتوليو. كان البرازيل كله يتململ غيظاً ضده، وكان وضعي محرجاً.. كنت أحس بالارتياح مع والد زوجتي، ولكنني كنت أتبع علنا سياسة مناهضة لسياسته.. وتعليقاً على هذا كانوا يقولون أنني لم أستفد من محاولات إصلاح والد زوجتي لي، في العشرين من العمر حصلت على موافقة بالزواج الكنسي كشرط لعقد قراني، وكان هذا جل ما أريد.. ولكي يتم الزواج بأبهى دلائل المجد فإن جيتوليو فارغاي سيكون شاهداً على خطيبتي في عقد القران.. وعندما علمت بذلك انتهيت إلى استدعاء ماريو دي أندرادي ليكون شاهداً لي وهو معروف بكونه ألد خصوم جيتوليو.. ولكن

صديقي اختار الموقف الملائم فهو لن يكون مضطراً على أن يواجه جيتوليو وحسب، بل أنه لم يكن في الظروف الصحية والمالية التي تخوله الإقدام على أن يكون شاهداً في حفلة زفاف "رسمية" بكل ما يحيط بها من مظاهر الأبهة.. لم يأت أي من الشاهدين، وانتهى جوسيلينيو إلى أن يكون شاهداً لخطيبتي، وموريللو روبيان شاهداً لي.

أجبرت بسبب هذا الزواج على مواجهة جيتوليو. وكان علـــي أن أذهب لأشكره على تعيين لي لم أكن قد طلبته وكان محيراً بالنســـبة لي. لم أطلب التعيين ولكني قبلت به ووافقت مع قبولي على مرافقة عروستي إلى هناك.

عند مدخل قصر "غوانابارا" أحسست بأن المسألة أكبر من طـــاقتي على تحملها فرفضت الدخول. تركتها تدخل وحـــدها بينمـــا بقيـــت في الشارع أنتظر، ولكن الدكتاتور رآني من النافذة فأرسل في طلـــبي: لقـــد أخذني بالجرم المشهود.. مكثنا وقتا قصيراً في غرفة صغيرة ننتظر حـــائرين، قلقين.. شابان في مقتبل العمر يبدآن حياهما حيث انتهت حياة الكثيرين.. وظهر جيتوليو بثوبه الأبيض والسيجار في يده:

– هل استلمتها – سأل وهو يبتسم.

وعندما أجبته بالإيجاب، أكمل مداعبته:

– هل استلمت المتأخرات؟

– كان يبدو كأن شخصاً يقلده..

– وهذا ما كان شائعاً عنه في مسرح "المجلة". وكان هو يجد متعة في ذلك، كما لاحظت.

في عام ١٩٦٤ استدعاني أراجو كاسترو وزير الخارجية في حكومة جوان غولار لتعييني ملحقاً ثقافياً في السفارة البرازيلية في لندن. قبل عشرين سنة كنت أقول له ممازحاً أنه لا يجب أن ينساني عندما يصبح المستشار الأول، وهو لم ينس لأننا بقينا أصدقاء طيلة هذه السنوات.. لم أمكث في لندن أكثر من خمسة عشر يوماً حين وقع الانقلاب العسكري في البرازيل. واستلم رئاسة الجمهورية الجنرال كاستللو برانكو.. وأصبح ميلتون كامبوس وزيراً للعدل.

كنت قد اتخذت ميلتون كامبوس، دائماً، كحاضن لقيم الثقافة والسياسة والمناقب في كل الظروف.. إنه الرجل الذي نحب كلنا أن نكون ما هو، كما يقول كارلوس درومونو دي أندرادي، وفي عام ١٩٦٥ عدت إلى البرازيل وتحادثت مع ميلتون لأعرف كيف تتجه الأمور. وعندما قلت له أنني سأبقي وظيفتي مادام هو موجوداً في الحكومة، أجاب:

– إذا كان الأمر كذلك فمن الأفضل أن تحزم أمرك وتستعد للرجوع.

وكان ما قال: بعد فترة وجيزة خرج من الحكم وكنت أنا في طريق العودة النهائية.. فقط لم أعط الوقت الكافي لتقديم استقالتي: كنت قد أقلت قبل ذلك.

لم يكن عملي في السفارة دبلوماسياً بالمعنى المعروف للكلمة.. كان السفير الفيس دي سوزا بطيبة منه قد ترك لي المجال في ممارسة وظيفتي في

الملحقية الثقافية إلى جانب الكتابة والمراسلة الصحفية. كنت مراسلاً لجريدة "جورنال دو برازيل" من لندن، كان ذلك يسهل لي الأمور وعلى الأخص فيما هو متعلق بالاتصال بوكالات الأنباء والصحف ودور النشر، وكنت أفضل أن أقوم به بصفة شخصية لا رسمية.. كان ذلك مجال عملي، ومعه بعض المهمات الإضافية. فكل ما هو ثقافي كان يجب أن يتم بواسطتي، وبالنسبة لموظفي السفارة كان كل شيء ثقافياً.. استقبال الطلاب ولاعبي كرة القدم، ومتابعة بعض معارض كتب، متابعتي لفتح صندوق يحتوي كتباً، أما السياسة، والحمد لله، فقد بقيت من مهام القادمين من البرازيل لتوضيح الثورة للإنكليز كأنما كانوا مهتمين جداًّ!! وأصابنا ما أصابنا من كارلوس لاسروا إلى كوستر أي سيلفا.

كنت أتقاضى ٨٥٠ دولارً في الشهر، وهو مرتب متواضع جداً للعيش في إنكلترا مع زوجة وستة أولاد، ماعدا الضيوف الذين لم ينقصوا أبداً وفقاً للتقليد البرازيلي الأكثر عراقة والأجدر بالاحترام، لذلك، وبالإضافة إلى الأخبار وتغطية الأنباء المهمة لصحيفة كموت تشرشل، وفوز ماريا أستروبونيا في بطولة ويملبدون للتنس، وكأس العالم في كرة القدم لعام ١٩٦٦، كنت أرسل قصة في اليوم لصحيفة "جورنال دو برازيل" وقصة أسبوعية لمجلة "مانشيت"، وقصة شهرية لمجلة "كلاوديا" وكنت أقرأ قصة أخرى كل ثلاثاء في إذاعة لندن.. لقد تحولت إلى مخبز أدبي حقيقي، وغالباً ما كنت أقضي السبت والأحد في البيت للكتابة.. بعض تلك الأعمال تم طبعها في كتاب "الإنكليزية المتألقة".

كانت الفائدة الكبيرة التي حققتها في تلك المرحلة في لندن هي معرفة الروح الإنكليزية عن قرب.. أقول عن قرب، لأن أبي كان ممثلاً لبعض الشركات الإنكليزية في "بللو أوريزونتي"، ومنذ صغري تعودت أن أراه آتيا معهم وتعلمت أن أعجب بهم. وما هو أكثر إثارة للإعجاب هو احترامهم لانتماء كل إنسان.. إنه شعب لا تحمل شرطته السلاح وهذا يقول كل شيء. إن الإنكليزي في نظري هو في وسط الطريق بين الشرق والغرب. وإنكلترا هي بقية حضارة منطفئة.. أو أنها الطريقة المثالية للعيش في عالم لا وجود له بعد.

ها قد وصلت ليجيا مارينا– زوجتي. حين تصل يصبح كل شيء مشرقاً، وإذ رأتني واقفاً مفكراً، سألتني:

– هل أنهيت الكتاب؟

مازال ينقص الشيء المهم: كلمة أخيرة عنها لا أستطيع أن أتجاوزها في هذه اللمحة السريعة من سيرتي الذاتية. فأنا أحرص جداً على أن أميز بين زوجتي وأي شخص من أهلي وبنوع خاص بينها وبين الموظفة في البيت.. لا لأن لدي شيئاً ضد أهلي أو موظفات البيوت، بل على العكس فبين أفراد أهلي من أحبهم جداً لروعتهم، وهناك عاملات في البيوت كان يمكن أن أتزوج إحداهن. لقد كان إخوتي دائمي العطف عليّ.. أما أولادي فهم نبع الفرح الذي لا ينضب.. وأما فيرجينيا زوجتي الأولى فإنها تعيش في الأبدية وفي قلبي.

ولدي أبناء وأحفاد عزيزون جداً.. ولكن وجود القريب والنسيب لا يمت بأية صلة إلى الاختيار كما هو الأمر مع الزوجة.. وليس أسوأ من تحويل الفرح إلى واجب.

إن العلاقة الحميمية لا تنفي وجود الاحترام، وفي الحياة العادية أمور خاصة لا يجب التفريط بها، لذلك أسعى إلى تجنب المناقشات الحادة التي تسببها مشاكل الحياة اليومية الصغيرة، وأن أقيم مع زوجتي علاقة تتجدد في كل ساعة.. نحن دائماً معاً. عندما لا تكون برفقتي أحس بأنني أضيع الوقت.. ونحن نعيش معاً منذ ١٥ عاماً، وأرجو أن نبقى معاً إلى الأبد.

الرجل العارى

قصص



حياة زوجية!

رفعت سماعة الهاتف، واتصلت بشقيقتها محتدة، مطعونة الكرامة:

– تصوري! أن قليل الحياء قد بعث بالمراسل يقول لي أنه لـــن يـــأتي إلى العشاء، ويجب أن يتأخر في مقر القيادة لاجتماع طارئ، ولكـــن الشـــك اعتراني في صحة ما يحمله لي المراسل فاتصلت بالقائد العام مستفسرة فأكد لي أن الجميع قد انصرفوا ولم يبق أحد هناك.. فماذا أفعل؟

– تعالي إلى هنا في الحال (أجابتها شقيقتها).

الشقيقة الأكبر سناً والأكثر تجربة وضعت نفسها في التصرف بغيـــة المساعدة. وبينما الاثنتان تتعشيان وهما تفكران في وضع مخطط ما كانـــت الزوجة الشابة تشتكي بالبكاء والتنهد:

– لم يمض شهران على زواجي بعد!! لم أتصور يوماً أنه قادر على القيـــام بعمل كهذا كأن يخدعني بمثل هذه الطريقة!

– هكذا يبدأون جميعًا، يا ابنتي – وضعت الشقيقة الكبرى النقاط علـــى الحروف، مرتاحة للشكوك، ثمرة خيبات الأمل التي حصـــدتها مـــن زواج انتهى إلى الطلاق، ولكن البكاء لا يفيد، سنرى ماذا يمكننا أن نعمـــل.. لا يجب أن تتركي الأمر ينقضي كسحابة بيضاء.. إذا لم تقومي بردة فعل، فهو غدا، ودون أن يعلمك، سوف يستمر في هتكه مكتفياً بإعطاء الأوامر.

– تخيلي! كان وجه المراسل باسماً.. وابتسامته كانت مبعث الشك في نفسي.

الشقيقة الكبرى بدأت الآن بإملاء التعليمات، أما الصغرى فبينما تمضغ بهدوء كانت دمعة سهلة الانهيار قد وقفت متوازنة على وجهها الطفولي، ولما انتهى العشاء انتقلتا للجلوس في صالة الاستقبال وأشعلت الأخت الكبرى سيجارة وقدمت واحدة للصغرى، ولشدة الارتباك، فإن الأخيرة، تائهة، قبلت بتدخين سيجارة لأول مرة في حياتها إذ أنها كانت قد تناولتها دون انتباه.. ولم تكد تمج المجة الأولى حتى حولت السعال إلى تنهدات، وقالت:

– لابد أن تكون لديه عشيقة! لم أفكر أبداً بهذا الأمر!

– اهدئي. اهدئي يا ابنتي– طمأنتها الأخرى: – يجب أن تلقنيه درساً.. أخبريني هل قلت له شيئاً عن المكان الذي تذهبين إليه عندما خرجت؟

– هل قلت شيئاً؟ لمن؟ تركت ورقة صغيرة كتبت عليها: "روبرتو – أنا ذاهبة – فيرا لوسيا"

وهنا وضعت فيرا لوسيا خدها على كف يدها ونظرت إلى الفضاء:

– كان يجب أن أستفيد من الفرصة وأنقب في أشيائه لأرى ما إذا كنت أستطيع أن أعثر على شيء ما.

كانت الساعة الحادية ليلاً عندما توجهت الاثنتان إلى شقة الزوجة المطعونة في كرامتها، وعندما وصلتا إلى هناك كانت مفاجأة تنتظرهما: على

الورقة التي كانت قد تركتها فوق الطاولة: "روبرتو – أنا ذاهبة – فير الوسيا"، كان مكتوباً: "وأنا أيضاً – روبرتو"، نظرت فيرا لوسيا إلى شقيقتها نظرة اندهاش وحيرة: إن الكتابة التي أضيفت قد أعاقت كل المخططات.. لا شيء من كل هذا! لقد جاء ثم خرج، وليس للأمر أية أهمية، هل لديك حقيبة كبيرة؟

وضعتا الحقيبة فوق السرير إلى جانب شقعة من الملابس والفساتين التي لم تدشن بعد. وجلستا تنتظران.

– وإذا لم يعد؟ سترين أنه جاء إلى هنا ليبدل ملابسه ويأخذ مالاً.. سترين أنه قد تخلى عني، فقط أُنظري إلى ما كتب هنا: "وأنا أيضاً– روبرتو". كتبها واثقاً، ودون كلمة تفسير واحدة! يا إلهي! يا لخيبة الأمل!

الحياة نفسها بحر من خيبات الأمل.. كان هذا ما تفكر فيه الشقيقة الكبرى، المجربة، وهي تحدق في شقيقتها باستهزاء وتشف، ثم أوغلت في الإبحار بعيداً.

– لا تعطي أهمية لهذا يا ابنتي، الرجال لا خير فيهم ولا فائدة منهم.

وأخيراً، عند منتصف الليل، وصل الذي لا فائدة منه. وما كادتا تسمعان صوت المفتاح في المزلاج حتى قفزتا من السرير وراحت الزوجة تضع ملابسها في الحقيبة. أما هو فلم يتجه مباشرة إلى الغرفة. نزع سترته ورمى بها فوق الكرسي ثم ذهب إلى الحمام يخفف عن نفسه عبثاً دون أن يتذكر أن يقفل الباب بعد ذلك اجتاز غرفة الاستقبال يدندن أغنية، ودخل إلى المطبخ، فتح الثلاجة، ألقى نظرة ثم أقفل الباب المفتوح. الاثنتان

مصغيتان إلى كل خطوة من خطواته لا تتركان تفصيلاً واحدًا من التفاصيل دون أن تتبيناه، تناول موزة ثم أشعل الطباخ. الشقيقة الكبرى ذهبت تستطلع ما يفعله ففاجأته وهو يحاول إعداد فنجان من القهوة:

– هل أنت هنا؟ – أصابه التعجب وهو ينظر إلى داخل وعاء القهوة:

– هذه القهوة ستكون مرمرة قلب. كم الساعة الآن؟

– منتصف الليل – أجابت الشقيقة غير مكترثة كأنها تمثال أسد نصفي، أما هو فتخلى عن فكرة إعداد القهوة. أكل موزة أخرى. تناول قشة لتنظيف أسنانه، ما تمتما:

– أكاد أتلاشى بسبب النعاس!

في الغرفة لاحظ وجود الحقيبة فوق السرير فعاد إلى زوجته يسألها مرتبكاً:

– من المسافر؟

تطلعت إليه مستعيدة كرامتها الجريحة:

– أنا. سأذهب إلى بيت أمي.

ضحك: – في هذه الساعة؟ أمك الآن نائمة، بلا شك.

وقفت الزوجة مرتبكة تنظر دون أن تدري ماذا تفعل، إن ردة فعله قد أحبطت المخطط المدروس بدقة. ولما عاد يسأل مرتبكاً: "لماذا"؟ قفزت هي قفزة مأساوية: "لأنني لم أتزوج لأكون تابعة لـ..." ثم غادرت إلى خارج الغرفة. وفي النهاية، ودون أن يكون مقتنعاً بشيء، طلب المعذرة

منها وشرح كل شيء بعد أن اخترع بعض الأكاذيب، وهي كانت قد صفحت عنه ولم يبق إلا أن تغادر الشقيقة الكبرى ليعود كل شيء منسجماً، وقد حفظ أمثولته جيداً.. وبدلاً من كل هذه الأمور اكتفى بالضحك.. كانت فيرا لوسيا تنظر من فوق كتف الزوج كأنها تسأل: "والآن"؟ "ماذا أفعل"؟

– روبرتو، أني أطالبك بإعطاء تفسير – سألت فيرا بشكل مفاجئ– جدي، ووقفت أمامه بثبات ووافقت الشقيقة الكبرى بنظرة من عينيها:

– تفسير أي شيء يا ابنتي؟

– أين كنت؟ – سألت وهي لا تزال ثابتة محدقة في عينيه كأنه يطلب تفسيراً.

– لا تكن متهتكا! أريد أن أعرف أين كنت اليوم ليلاً، إنه حقي كزوجة.

– أية مزحة هي هذه؟ – ثم عاد ليضحك: – كأنها قصة إذاعية! كان من المفروض أن أكون في مقر القيادة لحضور اجتماع تعليمات، ولكن الاجتماع ألغي فعدت إلى البيت، ولم أجدك، عندئذ خرجت أتعشى مع جورج وبعدها لعبنا بالورق. ركبني النحس، فخسرت خمسمائة فضية.

اتجه متكاسلاً نحو الكرسي وهو يداعب قشة تنظيف الأسنان بأسنانه، ثم جلس ينزع حذاءه ويتنهد:

– خذي هذه الحقيبة عن سريري. أريد أن أنام.

– أنا ذاهبة إلى بيت أمي – أجابت وهي تبكي دون أن تعرف ماذا تفعل.

– لا بأس، ولكن تذهبين غداً: الآن أصبح الوقت متأخرا جداً.

عند هذا الحد وإذ وجدت الأخت الكبيرة أنه لم يعد هنالك ما تفعل قررت أن تستأذن بالانصراف. إن تجربتها في الحياة لم تفد بشيء.. وبقيت الأخرى قرب الزوج في الغرفة، وقد قررت أن تعود إلى ما كانت عليه قبل وضع المخططات والمطالبة بالحقوق الزوجية، فعانقته:

– اعذرني يا حبيبي لأنني أسأت الظن بك، إن الناس تفقد عقلها أحياناً وتذهب تفكيراً في أمور وأمور.

فيما بعد وقد استلقيا وانطفأ النور، نادته هامسة:

– روبرتو...؟

– حنحن خارجاً من حلمه.

سألته بصوت متوسل:

– هل تعلمني يوماً اللعب بالورق؟

لم يجب. كان ينام وقد بدأ الحلم. أما هي، وقد اتسع صدرها بالانشراح كأنها نائمة عندما لاحظت للمرة الأولى أنه كان يشخر في نومه.

بالية بائع الحليب

في العمارة الواقعة عند الركن عدة نوافذ لا تزال مضيئة، في الطابق الثالث يقيم زوجان طعنا في السن. هناك أرى جزءًا من السرير، وساقًا، وسترة نوم من القماش المخطط، وصحيفة مفتوحة. فجأة تدخل المرأة العجوز ترتدي قميصاً واسعًا جعلت منه نفاخة مفرغة من الهواء، وتنتزع دون استئذان الصحيفة من يدي الزوج ثم تنحني لترى ماذا يوجد تحت السرير، وينطفئ الضوء.

رجال يدخنون في الطابق الأعلى وأرى من مكاني وميض السجائر. أما في الطابق الخامس فتقيم فتاتان وها هما تنظران إلى الشارع منحنيتين فوق حاجز الشرفة، مرفقتين. واحدة منهما ترتدي كنزة صفراء والأخرى قميصاً أبيض.. وتبدوان من بعيد كأنما قد غسلتا وجهيهما واستعدتا للنوم. عادة، تنامان والنوافذ مغلقة بإحكام.

في الطابق الثاني امرأة تمشي ذهاباً وإياباً وتقوم بحركات يدوية فتبدو كأنها تتكلم وحدها، وفي البيت الصغير المقابل تقيم ساحرة عجوز مع كلبها.. من الجائز أنها تتحول بعد منتصف الليل إلى أميرة ذات شعر ذهبي وتذهب لترقص في الملهى، ولكن الساعة الآن لا تزال الحادية عشرة وهو وقت التقشف وارتداء فستان أسود مخيف، وكل ما تفعله هو وضع اليد في إناء وتمريرها بالتالي فوق الكلب مجبرة إياه على البقاء متمدداً.

منتصف الليل! انطفأت الأضواء كلها تقريباً. في البعيد تترك هضبة دوس كبريتوس مجالاً لرؤية بعض مساكنها المتواضعة التي لا تحجب رؤية الريف عن المقيمين في الطابق الأخير من العمارة. ضوء القمر يعطي المباني الأمامية لوناً مائلاً إلى الاصفرار. مجموعة صغيرة من الناس تغادر لتوها قاعة السينما.. البعض منهم يتسمر عند موقف الباص، والبعض الآخر يستمر في المسير.. نصف دزينة من السيارات تتحرك.. القمر بدوره ينطفئ وراء غيمة.. يصل الباص الأخير ويحمل بقية الحياة.

تموت المدينة، من الآن فصاعداً ليس إلا قطار كهربائي، وتاكسي يتوقف لحظة، أو حديث سكارى يلعلع فجأة ولبرهة قصيرة يقضي على مشهد الموت الذي هبط فوق المدينة.. الخلاسية تستطيع الآن أن تناقش بواب العمارة، وحارس البناء يستطيع أن يأتي ليتجسس.. سمعت منبه سيارة، وبكاء طفل، وصرخة حارس، وعواء قطط، وسعال رجل، وضحكة امرأة.. اجتاز فأر الشارع من حفرة إلى حفرة، ومر شاب يدندن غناءً. كلها علامات حياة لا تستطيع أن تسيطر على مساحة الموت في مثل هذه الساعة التي نسي فيها الناس أنفسهم وناموا.

لكن واحدا لا يزال مستيقظاً ويستمر حياً. لا أعرفه، لا أعرف من هو، وما إذا كان رجلاً أو امرأة. أرى فقط نافذته مضاءة، وأتكهن ظله أحياناً وأميز دخان سيجارته. لا أعلم أية مهنة يمارس، وما إذا كان يقرأ أو يؤلف كتباً، أو إذا كان ينتظر أحداً، ولأي سبب لا يأوي للنوم.. لا أعلم، لقد تعودت حضور هذا الرفيق المجهول، يرافقني حتى الفجر، والذي، متألماً

كان أو فرحاً، فإنه يؤكد الحضور الإنساني المضيء في قلب العتمة. إن لدي رغبة في أن أتصل به وأمد له يدي من فوق الأشجار والعمـارات الـتي تفصلنا لأحييه وأطلعه على أن نافذتي هي الأخرى مضيئة، وأبين له أنني أنا الآخر لست نائماً، أنا هنا يا أخي.. إن الليل يذهب مطمئناً، فضع يـدك بيدي ودع المركب يمر.. جميل أن يعرف كل واحد منا، ومن مكانه، عـن النور، بينما المدينة تنام، وهن الانتظار ليوم جديد، دع الليل يمر راكضـاً! وكل واحد منا في نافذته، فنحن، يفهم واحدنا الآخر.. أن الليل ملكنا.

في البعيد، خلف العمارات تولد بقية من نور.. إنه الفجر يتقدم. ها هي النافذة المضاءة تنطفئ فجأة. أصبحت السماء مغبرة قلـيلاً والمدينـة شاحبة. إنني وحيد الآن.. لم يعد من ضوء غير ضوئي. هنالك لحظة توازن بين العتمة والصمت، بين وحدتي ووحدة الجميع.. وفجأة يصعد في الهواء ضجيج صباحي.

الآن، أرى من النافذة، كأنما أرى من قمارة مراقبة، بـائع الحليـب يتقدم. إنه يوقف عربته عند الركن في حين أن زنجية نبتت لا أدري من أين وأخذت تتحداه من بعيد.

– زنجية بلا حياء! آه لو أنني أمسكت بك.

من الناحية الأخرى، وقرب الكوخ الخشبي، وقف حـارس البنـاء يراقب المشهد. بائع الحليب والمرأة ينظران الواحد إلى الآخر كحيوانين. هو يضرب برجله في الأرض موحياً إليها بأنه سيركض في أثرها، وهي تبتعـد ململمة نفسها وتختفي عند الركن.

لا أستطيع أن أسلم الحليب، فهذه الزنجية تريد أن تسرق قنينة.. يكفي أن أبتعد عن العربة قليلاً حتى تأتي.. ظل متردداً، يقدم خطوة إلى هنا وأخرى إلى هناك، كان يتظاهر بالابتعاد قليلاً عن العربة ثم يعود خلسة على رؤوس أصابعه ليفاجئ المرأة.. لم ير أحداً.. تناول قنينتين، وابتعد متشككا باتجاه عمارة هناك.. ظهرت الزنجية في الركن. جاءت متلطية، ملتصقة بالحائط. وضعت ظهرها على العربة كمن لا يريد شيئاً، نظر بائع الحليب من بعيد، وضعت الزنجية يدها على قنينة وانهمر بائع الحليب بالصراخ فهربت الزنجية مرتعبة، بائع الحليب أخذ يقذف الشتائم، مهدداً:

– يا بنت الكلبة! أنظري إلى ما فعلته! سأقتلك يا شيطانة.

ألقى نفسه على العربة ونظر إلى الحليب السائل وحطام القنينة. بكى الحليب المسال:

– في ساعة كهذه لا يظهر أي حارس في المكان.

رفع عينيه إلى أعلى فوجدني واقفاً عند النافذة.

– هل يتفضل السيد بالانتباه إلى العربة بينما أذهب لتسليم الحليب؟ فتلك المرأة..

– من؟ أنا؟ وجدتني أتدفق حيوية وأنا في أعلى الطابق الخامس.. رميت إلى الشارع بنظرة قادرة

على أن تجعل أكثر الزنجيات إرعابا، ممن يسرقن قناني بائعي الحليب، يهربن خائفات:

– أنا أستطيع، أستطيع! ولكن، وأنا في الطابق الخامس، يمكن للزنجيـــة أن تسرق العربة كلها.. هل تعتقد أنها ستحترمني؟

– انظر.. لقد كسرت لي قنينة.. هل يستطيع السيد أن...

الحارس قوي وحازم، اجتاز الطريق ووضع نفسه قـــرب العربـــة.. شكره بائع الحليب ثم أخذ قنينتين وخرج راكضاً باتجاه العمـــارة.. وعـــبر درب ضيق، خلفي، وصلت الزنجية حذرة.

– ماذا تريدين؟ – هددها الحارس.

اقتربا من بعضهما، تحدثا بصوت منخفض بعض الدقائق، وعلى أثر ذلك أخذ الحارس الزنجية من ذراعها، واجتازا معاً الطريـــق واختفيـــا في منطقة أعمال البناء.



مناورة فرقة الخيالة

كانت فرقة الخيّالة قد خيّمت على مقربة من نهـــر "داس مـــورتس" وكان وقت الطعام قد حان ونحن مصطفون وفي يد كل واحد قصعة، عندما انطلقت صفارة الإنذار:

– جانبوا الحذر! قاذفة عدوة!

كنا قد موَّهنا المستودعات بأغصان الشجر. وكانت الجياد.. أيـــن كانت الجياد؟ تذكرت الآن أنه لم يكن هنالك جياد، وأننا وصلنا إلى المخيم في الشاحنات على أن تتبعنا الجياد محمولة في القطار وتكون في انتظارنا في "بارباسينا". ركضنا جميعاً، تقيداً بالتعليمـــات، إلى الملاجـــئ المحفـــورة في الأرض. أما القاذفة العدوة "التيكو– تيكو" التي عادت إلى قاعدة "ســـان جوان ديلراي" فقد أفرغت نصف دزينة من القنابل التي كانت كناية عـــن أكياس ورقية مليئة بالجص، وانصرفت. أما المدفعية المضادة للطائرات فقد أطلقت النار تباعاً، وحين زال الخطر فإن المدفعي تقدم من النقيب:

– لقد تم تحييد العدو، حضرة القائد..

– هل تم الإسقاط؟ – سأل النقيب وقد حمل وجهه ملامح الجدية.

– إسقاط من؟

– الطائرة، يا بهيم.

– كلا سيدي، لكنها أصيبت إصابات مباشرة في الجناح والمؤخرة. أطفال يلهون بالحرب، وحين انتهى اللهو خرجنا إلى مكان إعداد الطعام وتوزيعه، فاكتشفنا مندهشين أن العدو قد ألقى قنبلة من الجص على عربة المطبخ المتحركة فاستقرت القنبلة في وسط دست الفاصوليا.. وأفسدت غذاءنا كلياً.

– لقد فعلوا ذلك عمداً – قال البعض وهم يشيرون بقبضات أيديهم إلى طائرة "التيكو تيكو" التي اختفت وراء الأفق. أما رجل البطارية المضادة للطائرات فقد خرج إلى الصيد وقتل قنفذاً وأكله بينما بقينا نحن دون طعام.

بعد ذلك كان الهجوم الليلي لمواجهة الأعداء.. وهم الفرقة العاشرة في "بللو أوريزونتي"، والفرقة الثانية عشرة في "سان جوان ديلراي" وصيادون من باهيا.. لم نتمكن أبداً من رؤية هؤلاء الصيادين ولكم كنا نسمع عنهم الكثير.. وقيل أنهم سيصفوننا.. أما الباقون من الأعداء فكانوا موزعين في كل الأماكن.. وأما رجال الفرقة الثانية عشرة فكانوا قد اختلطوا بنا على الطريق وهم يفتشون عن موضع يقاتلوننا فيه.. واختلف القادة فيما بينهم:

– اذهب مع فرقتك من هنا!! الجميع معاً، هكذا، غير ممكن.

– انظروا إلى هذا السخيف كيف يتكلم! لا تنس أنك عدو! أنت عدو! سأعتقل الجميع وانهي الحرب.

– إذا ألق علينا القبض! إنه عمل معروف تفعله لي.

كانت تمطر، كنا نسير مكشوفين باتجاه واحد دون أن يفهم أحد شيئاً، أثناء الليل ظهر عقيد يمتطي جواداً ليعلم قائدنا أن صيادي باهيا قد أضاعوا الاتجاه، وأنهم في تلك الساعة قد اجتازوا ميناس جيرايس ولابد أن يكونوا قد غدوا على مقربة من ريو غراندي دوسول.. أجاب قائدنا بأنه غير معني بأمر صيادي باهيا الذين هم من الأعداء كما هو مفروض في المناورة.. واكتشف القائد عندها أن العقيد الذي يمتطي جواداً كان هو الآخر عدوا.

– هل تعلم شيئاً؟ إنك أسير الآن.

أوقف العقيد وامتطى صهوة الجواد الذي غنمه. كانت المجموعة قد بدأت تتوغل في تقدمها على الطريق، بينما نحن كنا قد توغلنا متمسكين بمؤخرة عربة تجرها البغال.. كانت العربة تخصنا ولكن عجلاتها لم تعد صالحة فتوقف التقدم بعد أن تاهت البغال فوق الجسر ووقع مدفع ثقيل من العربة في النهر.. أمسكني الملازم أول "هلفيسيو" من ذراعي وأخذني إلى ركن منفرد:

– إن أنصارنا قد اختفوا. لا أعرف من هم هؤلاء. بينهم نقيب يريد أن يحتجزني ليجعلني آمراً مساعداً له. لقد أصبحت هذه الحرب مسخرة.. قل لي هل سنتوه في الغابة؟

كنا قد همنا في الغابة مخلفين الطريق وراءنا. وكان هدفنا التفتيش عن ملجأ يقينا الأمطار والبقاء فيه حتى الصباح لاتخاذ وجهة "سانتانا" حيث يفترض بوحدتنا أن تكون متواجدة. مشينا في الغابة طيلة الليل. في مكان

ما مر هلفيسيو تحت شجرة جوافة فشق الطريق ثم أفلت غصناً مشــدوداً أصاب وجهي بشدة.

- لقد جرح! - زعقت.

في البداية اعتقدت بأن الغصن قد ثقب عــيني، فهــرع هلفيســيو ليقودني كم لو كنت أعمى، وقرر أن يعود بنا باتجاه الطريق العام.. وهناك ظهر عميد وهو يقود سيارة.

هذا الملازم قد جرح في المعركة - قال له صديقي.

- أحمر أو أزرق؟ - سأل العميد.

- أزرق..

- إذا اصعدا.

كنا من الجيش الأزرق. وصلنا إلى مكان علمنا فيه أن بعض جنــود فرقة الخيالة قد غزوا دكاناً صغيراً واحتجزوا كل كمية السجائر "أليرتا" - إنهم أصدقاؤنا بالتأكيد- عرفنا فوراً- لابد من أن يكونوا على مقربة مــن هنا.

تابعنا السفر، وبعد قليل تم احتجاز السيارة وأسر العميد وكل شيء: لقد وقعنا بين أيدي الحُمر.. ودون أن أتمكن من مشاهدة أي شيء، تبينت أن أحد الأصوات من آسرينا ليس غريباً عني.

- هلفيسيو. أنظر من هو الشخص الذي احتجز العميد.

- إنه النقيب نلسون!

هذا يعني، على الأقل، أنهم لم يطلقوا علينا الرصاص، فالنقيب نلسون كان مدربنا في مدرسة الفروسية، والآن، وبالرغم من كونه عدواً، فإنه سيعامل الأسرى باحترام.. وفعلاً تم فحصي الطبي على يد البيطري الذي نقر بيده على عيني ثم حرر أمراً كتابياً لاستقبالي في مستشفى "دي فوغو" في "جويز دي فورا".

– والآن؟

طلبنا من النقيب نلسون أن يسمح لنا بالهرب، ولكنه خجل من الموافقة، وعند الفجر اجتزنا قرية صغيرة فاستقبلنا سكانها بحفاوة:

– لديهم جريح هنا! – كانوا يقولون مشيرين بأصابعهم إليّ.

منحوني سريراً فنمت.. واستيقظت في الساعة الثانية بعد الظهر حيث لم يعد في المدينة جندي واحد.

– لقد هربوا جميعاً – قال لي عجوز يقف عند مدخل دكانه – ونسوك هنا. لقد جاء العدو. وها هو!

– إنهم أصدقاء. فأنا أزرق.

حسدت هلفيسيو على هربه بينما لا أزال أسير النقيب نلسون. أعطوني أكلاً وعرضوا علي عربة تجرها الثيران لتنقلني إلى "سان جوان ديلراي". عربة ثيران تحتاج إلى شهر لتوصلني:

– شكراً جزيلاً – قلت – إني أفضل الذهاب سيراً على الأقدام.

بقيت أطوف في المكان الصغير والجميع ينظرون إليّ بشفقة وأنا أحس بنفسي ميشال ستروكوف، ملتحياً، قذراً، وتعباً. كنت أعتقد بأنني أعور وأشعر برغبة في البكاء.. ربما استطيع البقاء للتجسس على العدو الغازي، ولكنني كنت قد بدأت أحس، بسبب النقيب ولسون، بأنني أحمر أنا الآخر..

عرضت على الصبية الجميلة في الصيدلية أن تضع القطرة في عيني. أخذت بعين الاعتبار، للحظة عابرة، احتمال التوله بها مدى الحياة ولكن سن الذهب التي افترت عنها ابتسامتها أبعدت الفكرة في الحال.. وإذ لم يكن المستلزم الطبي الذي أحتاجه متوفراً لفوا رأسي بالقماش وغطوا عيني المصابة فرحت أتخيل نفسي ممثلاً في فيلم عن الحرب الفرنسية – البروسية.. وبعد تفكير طويل قررت أن أكمل سفري عبر الطرقات الطويلة إلى ميناس جيرايس.. بعد ساعتين من المسير أدركت عربة الثيران التي كانوا قد عرضوها علي..

استويت جالساً إلى جانب السائق، ورحنا، نحن الاثنان، ننتقد هذا العالم الخارجي حولنا.. أخبرني الرجل أن جنوداً أجهزوا على موسم برتقال هذا العام في مزرعة سيده.

– إنها الحرب! – قلت لأحسم الموضوع.

أما هو فوافق وأصبح ينظر إليّ نظرة أكثر احتراماً.

ظهرت في البعيد شاحنة صغيرة يقودها رقيب أقل رتبة مني. احتجزت الشاحنة بالرغم من اعتراض الرقيب الذي ادعى أنه كان يأخذ ذخيرة حية إلى الفرقة العسكرية.

– أزرق أو أحمر؟

– أحمر.

– إذاً أنت أسير حرب. أنا أزرق.

جعلت الشاحنة تتخذ وجهة معاكسة لوجهتها وتركنا عربة الـثيران وراءنا. كانت الذخيرة الحية كناية عن كيس طحين، ولأني كنت منهكاً من الجوع أخذت قبضة منها وملأت بها فمي، بعد قليل وقد اتخمت طحيناً، طلبت ماء.

– ماء؟ – وقهقه الرقيب.

لم يكن بمقدوري أن أنطق جيداً والطحين في حلقي يكاد يخنقني.. انحرفت الشاحنة فجأة إلى الطين ولم يعد من طريقة لإخراجها.. بعد ساعتين تقريباً وصل منقذنا: عربة الثيران التي كنت قد بدأت أحتقرها.. ربطنا الشاحنة إلى النير، بينما سائق العربة كان قد أعطاني بلعة كاشاسا لتساهم في إنزال الطحين إلى جوفي.

– إلى الأمام – أعطيت أمراً.

كانت الساعة الخامسة والنصف مساء عندما دخلنا "سان جوان ديلراي"، وبسرعة أخذت قنينة من المياه المعدنية من أحد الدكاكين في الركن وتوجهت إلى معسكر الطيران.

– من الذي ينتصر؟ – سألني أحد الفضوليين.

والتقيت برقيب أول من صيادي باهيا كان يرتدي ملابس رقيب أول حقيقية كأي واحد منا:

– لقد جئت إلى هنا، لا أعرف كيف! ألا تريد أن تعتقلني من فضلك؟ إنها مسألة محيرة حقاً، فهنا أرض عدو ولا يريد أحد أن يعتقلني.. لقد تكلمت الآن مع مجلس الحرب فاعتبروني هارباً..

– أتريد أن تكون مراسلاً لي؟ – اقترحت.

– مراسل؟ – أصيب بالتعجب: – إنني رقيب أول! ومركز مراسل لم يعد له وجود.

– إذا، عليك اللعنة!

ذهبت.. وفي معسكر الطيران مكثت أنتظر طائرة كانت قد ذهبت لقصف خطوط العدو الأمامية.. وعاين طبيب عيني – الحدقة أصبحت سوداء – قال الطبيب مكتفياً.

بعد قليل وصلت الطائرة، وكان الطيار قد ذهب للعشاء، أما الملازم أول؟ يعذرني القراء لأن عليّ أن أعود إلى الحديث عن الملازم أول ألفارو لأشي به إلى الأمة..

رحلة طيران ليلية

لم يكن الملازم ألفارو طياراً بأي شكل من الأشكال. كان ملازمـــاً في الاحتياط، مثلي تماماً، يخدم في الفرقة الحادية عشرة للمشاة، وكان حليفنا في المناورات، ولكنه الآن في موقع يحسد عليه بفضل أحد النافذين، بـــلا شك.. أما خبرته في الطيران فلم تتجاوز العشر ساعات مـــن التحليـــق في نادي "جويز دي فورا" للطيران، مما يعني أنه قام بعدة طلعات فوق مخـــيم "بنفيكا".. وكان تحليقه مقتصراً على مرافقة الطيار الـــذي كـــان يقـــوم بطلعات المناورة فوق تجمعات العدو عندما كانت "التيكو – تيكو" قـــد قامت بالقصف فوق رؤوسنا.. وكانت القنابل عبارة عن أكياس ورقيـــة مليئة بالجص، والتي أصاب أحدها دست الفاصولياء. وكان المـــلازم أول ألفارو هو من رمى بها وقد اعترف بذلك فيما بعد.. وهذا ما جعله خائنـــاً في نظرنا، لأن الطائرات كانت تعود إلينا قبل أن تحتجزهـــا الفرقـــة ١٣ وتحتجزه معها.. ولكنه لم يواجه الإعدام، بل على العكس فإنه راح يرتدي عند المساء بدلة أنيقة بينما كنا نحن نأكل الغبار ونستنشق رائحة الجص في "الجبهة"، وكان يذهب بأناقته إلى شوارع سان جوان يغازل الفتيـــات في "فندق هيوستن".

ألقى الملازم ألفارو نظرة عليّ من فوق إلى أسفل:

– أنت في حالة يرثى لها، أليس كذلك؟

وأعطى أوامره إلى زنجي كان يتجسس علينا عن بعد خطوات:

– جهز الطائرات.

ثم توجه إليّ بعد أن أشعل سيجارة!

سنقوم بدراسة تصميم الرحلة.

أخذني إلى غرفة مجاورة، ووضع فوق طاولة هناك خريطة المنطقة وراح يدرسها كما لو كان "ايرول فلين" في "دورية الفجر".

– إنها مائة وثلاثون كيلومترا من هنا إلى هناك، والسرعة القصوى هي أيضاً مائة وثلاثون كيلومترا بالضبط. نحتاج في أحسن الحالات إلى ساعة واحدة من التحليق – وراح يشير بالقلم إلى الاتجاه الذي سنسلكه، وهو مركز التفكير.

وتطلع إلى ساعة يده:

– سننطلق في السادسة ونصل في السابعة. إذا كنا سنصل بعد السابعة فمن الأفضل أن نبقى هنا.

رجع الزنجي وهو يقول أن الطائرات أصبحت جاهزة، ومكث واقفاً ينتظر بقشيشا ولم يكن قد فعل سوى أن مسح زجاج الطائرة الأمامي بخرقة بالية.

– هل نضع خطاً فوق المكان الذي سنتبعه؟ – سأل الملازم ألفارو بجدية.

وكما لو كان قبطاناً جوياً متمرساً، وضع مسطرة فوق الخريطة ووصل بين مدينتين بخط خطه قلم صغير كان هناك.

– كل شيء جاهز للإقلاع. نستطيع الانطلاق.

ارتفعت الطائرة عن الأرض قبل أن تبلغ العجلات السرعة التي تسمح بالارتفاع، ولكن "آكل الهواء" قال لي أن الطيران هكذا:

على قدر ما نحمي باكور يكون الأمر أنسب لنا، وإذا وصلنا بعد السابعة بالله.. باباو!!

– "باباو"!؟ – أجبت.

– ستكون الدنيا قد أظلمت وموقع "جويز دي فورا" لا أضواء فيه.

– يا إلهي! – إذاً دعنا نرجع..

– كلا.. موقع "سان جوان" أيضاً لا أضواء فيه.. ولكن مادام عندنا..

– ثم انحنى إلى الأمام ليتأكد من محتوى خزان البنزين:

– هل يكون ذلك الزنجي قد فكر في ملء الخزان بالوقود؟

– "باباو"!! – تنهدت وأنا أبلع ريقي ناشفاً.. أما "آكل الهواء" فقد سعى إلى طمأنتي وهو يهتف بحيوية في أذني:

– لا خطر يا رجل. مادمنا لا نزال محلقين فإن كل شيء على ما يرام.. وأخيراً، ليستحث حميتي طلب مني أن أساعده قليلاً في الملاحة، وهذه تقتضي أن ينظر أحدنا الخريطة، بينما هو يمضي قائلاً لي:

– أنظر من تلك الناحية إلى الأسفل، هي ترى درباً؟ والآن هل ترى تجمعاً آهلا من الجهة اليمنى هل ترى الآن طريقاً معبداً من جهة اليسار؟

أجهدت نفسي في اكتشاف الرؤية الصحيحة وأصابعي تحمل أهدابي، وكنت أنظر وأنظر دون أن أرى شيئاً.

– لا أرى شيئاً.. أعتقد أن عيني الأخرى قد ساءت

دخلنا في غيمة سوداء – فشرح هو: – سأحاول الخروج منها.. لقد ارتفعت كثيراً ولا أستطيع.. إذا هبطت إلى أكثر من هــذا فقــد ارتطــم بالجبل.. من الأفضل أن نحاول الوصول إلى "بارباسينا".

حدق في الخريطة:

– أصبحت "بارباسينا" خلفنا!

– أين نحن؟ – سألت.

– في رأيي المحسوب، نحن هنا.. هنا.

مر بإصبعه على طول الخريطة ونظر إليّ محتاراً:

– أنظر أنت.. هل خرجنا من الخريطة؟ هل نعود؟

أحسست بنفسي مطعوناً في كرامتي:

– ألم تقل أنك كنت طياراً؟ وأن بمقدورك أن تقود هذه "اللعبة"؟

– تمهل يا رجل.. القيادة مسألة بسيطة جداً.. ولكن المهم هــو ألا تفقــد الاتجاه.

– لقد فقدنا الاتجاه – تمتمت.

– كلا.. – طمأنني: – لقد نذرت عشرة "أبانا الذي".. وعشرة "السلام عليك".. وسترى أننا سنخرج سالمين.

بعد قليل تبددت الغيمة – فنذرت سبحة كاملة – وخرجنا إلى سماء منشرحة كوردة. في الأسفل كانت الظلال تلقى على واد عميق.

– لابد أن يكون وادي "بارايبا" – قال، وهو يمسح عرق جبينه. ألم أقــل أننا سنخرج من المأزق؟ إن صلاتي مقبولة. الشمال يجب أن يكــون مــن هناك، أجل، أنظر كيف تغرب الشمس من هنا. هل ترى في الأسفل نهراً؟

– أجل هذا هو النهر – أشرت بإصبعي سعيداً كهندي.

– إنها "بارايبا".. الآن أمسك بيدك الخريطة ولا تضع بارايبا.. من أية جهة هي "جويز دي فورا"؟

بعد تردد طويل قررنا أن نختار اتجاهاً ما.. بعد دقائق اكتشفنا، ونحن ننازع خوفاً، أننا كنا في طريق العودة إلى "سان جوان ديلراي"، وأمامنــا غيمة مخيفة، مظلمة، ومفترسة – إنها الغيمة التي كنا قد خرجنــا منــها – كانت تفتح نفسها وتريد ابتلاعنا.. رجعنا، وانخفضنا محــاولين ألا نضــيع النهر ولو لحظة واحدة. الساعة السابعة والنصف. لمحنا الأضــواء فــوق بنفيكا.

– يجب أن نطير فوق المدينة لاستنفار المسؤولين – قــال المــلازم "آكــل الهواء"، وبعد أن درنا دورات عديدة فوق "جويز دي فورا"، اتخذ وجهــة المدرج وقال: – من الأفضل أن نهبط مرة واحدة قبل أن ينفد الوقــود.. الوقود يكاد ينفد!!

هل نهبط في هذه الظلمة!؟

هرعت الشاحنة على طريق المطار وفيها أفراد نادي الطيران. كــان الجميع يتعشون، وكل واحد في بيته، عندما سمعوا الطائرة واجتمعوا على

عجل لينقلوا جثتينا. جعلوا أضواء الشاحنة تضيء المدرج وعلى نور تلك الأضواء هبطنا.. تلك الأضواء ومعها أضواء النجوم التي جعلت الليل جميلاً.. فكرت بسانت اكزوبري ما أن وطأت قدماي الأرض. طلبت نقلي إلى المستشفى وألا ينسوا أنني كنت جريح حرب، وبحاجة ماسة إلى عناية طبية.

قبل أي شيء استأذنت الملازم ألفارو:

– مجازفة كبيرة يا حضرة القائد

– لمرة أخيرة، لا بأس.

– أخيراً؟ اعتقدت أنها المرة الأولى.

كانت الأخيرة فعلاً، علمت فيما بعد أن نادي الطيران قد منع "آكل الهواء" عن التحليق وذلك من أجل سعادة الأمة ومصلحة الجميع.. ولهذا الأمة أشي به: حذار. لا توكلوا إليه بمصير طائراتنا، على الأرض يمكنكم أن تتعاملوا معه كمحام بارع: أنه الأستاذ الفارو غامارايس الذي هو، مع كل ذلك، وكيلي في قضية قانونية. وأمس كنا معاً، قال أنه سيذهب إلى "بللو أوريزونتي" خلال أيام قليلة:

– في القطار – طمأنني.

شكرا دكتور

عندما قلت له أن أحد معارفنا قد مات نتيجة انفجـــار في الـــدماغ، عصر رأسه بيديه:

– يا قديسة "افيجينيا"!!

تعجبت من أن يكون موت أحد معارفنا البعيـــدين قـــد أصـــابه في الصميم، ولكنه ما لبث أن أوضح سبب انزعاجه:

– هذا هو بالتحديد ما سيصيبني وليس في ذلك أي شك: الألم في رأسي لا ينفك عني! إني أدنو من الموت!

أعرفه منذ صغري وهو دائماً يدنو من الموت. ليس من مرض يمـــر بجانبه دون أن يتوقف ليقنعه، وبما لم يقبل شكاً، بأنه مصاب بأعراضه الـــتي تجعل أيامه معدودة، وهو يعير أية مسألة معوية بسيطة، كبعض الغازات أو الاحتراقات، أهمية وأوصافاً مضخمة مرعبة:

– إلى درجة شعرت معها بأنني آكل نارا.. إنني مصاب بقرحـــة مزمنـــة.. وهذه الحرقة، عليها اللعنة، وعلى الشيطان، لو كنت امرأة لعرفت لها سبباً هستيريا من الألم! قرحة ملتهبة! وأقسى ما يكون!

مرة، وخلال شهر كامل، راح يطلب حقنة يومياً بحقنات البنيسلن، وبمبادرة منه ومسؤولية ذاتية.

– لم تفد بشيء – اشتكى–: أعتقد أن الطبيب الذي أجرى عملية جراحية لي قد نسي شيئاً ما في بطني..

كانت قد أجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية وهو صـــغير، ولكنه لا يزال معتزاً بها حتى اليوم:

– يا رجل، كان يجب أن ترى الزائدة الدودية التي انتزعوها مني، تشبه إلى حد كبير "الصوصج" الألماني.

لو كان الأمر متعلقاً به لأجرى لنفسه كل أنواع العمليات الجراحية في قواميس الجراحة: "لم يعد ينقص سوى أن يدخل إلى جوفه مع مبضـــع الجراح ليتأكد مما به. أكد له الأطباء أن كل شيء طبيعي فيه ولكنه خـــرج لاعناً الطب:

يكتشفوا ما بي، إنهم مشعوذون، ومن يفهم عني هو أنا نفســـي. أن المصور بالأشعة، صديقه الشخصي منعه من دخول العيادة: كان قد أخذ له عدة صور بالأشعة، من رأسه حتى أخمصيه.. وظل هو متشـــككاً يختـــرع الافتعالات: "إن كبدي مرتخية اليوم كأنها قطعة إسفنجية وقد امتصت كل ما هناك من رغوات، أما مثانتي فهي قاسية كقلم، ضع يدك هنا فقط".

– إنه قلم حقيقي موضوع في جيبك.

– ضعها، هذه الناحية، يا بهيم.. لا يفيد معكم.. لا أحد منكم يأخذ أمري بجدية.

يعيش ليقرأ الوصفات الطبية: "هذا الدواء هو من الأدوية الجيدة"– وتلتمع عيناه: "إنه الدواء الذي أحتاجه. أتسمح لي بتنـــاول حبـــة منـــه لأجربه"؟

وأخيراً انتهي إلى عيادة طبيب نفساني: "دكتور، كيما أكون صـــادقاً اسمح لي أن أقول: لا أعرف من أين أبدأ. يقولون أني مجنون!! أنا في الحقيقة لست إلا مخرب العافية! "ثم يتابع: – "ليس لدي أسرار تحتـــاج إلى مـــن ينتزعها.. فأنا راغب فقط في انتزاع كل أسناني".

ولكنه، كل يوم، أقوى منه سابقاً، وأنشط عافية، وأسمن منه، وأكثر صحة! "أنا أكثر صحة؟ تأتي ردة فعله كمن تعرض لشتيمة! "يـــا قديســـة أفيجينيا"! ليتك رأيت كيف أمضيت الليل بسبب قطعة لحم أكلتها أمس، بالماء والملح تجنباً للشحوم التي لا أستطيع تناولها!!! في المطعم، يثير دهشـــة الخدم: "جئني بفيليه مفتوحة ومضروبة، مشوية جيداً على السفود، وضع عليها ثلاث نقاط من زيت الزيتون البرتغالي واغسل السكين جيداً لأنني لا أستطيع أن أشتم رائحة الثوم، ومعها حبتان مسلوقتان من البطاطا وضـــع عليهما ثلاث حبات ملح".

بين الحين والآخر يحاول صديق ما أن يسايره: "إنك تبدو شاحباً، فما بك؟ يبتسم راضياً: "يا بني، تعالى إلى هنا وسأخبرك لأنك الوحيد الـــذي يفهمني". ويبدأ بتعداد مشاكله الصحية – أمراض من كل الأنواع وأكثرها استعصاء على العلم، ولكنه يعرف أسماءها القابعة على طرف لســـانه. في المرة الأخيرة عدد مائة وثلاثة أمراض.. أما والكلام عن اللسان فإنه يعيش

ليرى لسانه كما لو كان قطعة منتزعة من ميت مثل فيه: "انظر كم هو كبير لساني، ومتشقق، إني مصاب بذات الرئة بلا شك: هذا السعال، وهذا الهيجان كله، وهذه الحرارة الكفيلة بأن تعطل المحرار.. لابد أن رئتي مثقوبة كالجبن السويسري. إنها أعلى درجات السل"، ثم يبصق: "إذا وقعت ذبابة في هذه البصقة فسوف تموت مسمومة".

أخيراً تمكن الأصدقاء من تبين الأمر: ما يحتاج إليه الرجل هو الزواج.. يجب تدبير امرأة مناسبة لتهتم به. "أنا أتزوج"؟ وينشق فمه عن قهقهة يستطرد معها: "إنكم تريدون أن تقضوا عليَّ نهائياً"! ولكن الحديث عن الزواج لا يمكن أن يكون علنياً إلى هذا الحد، لذلك، لاحظوا منذ عدة أيام أنه كان مغرما بصبية قد تخرجت حديثاً من مدرسة تمريض "أنا فيري".

السجادة الشرقية

اشترى السجادة بمبلغ مائة وخمس كونتات ووضعها في ردهة الاستقبال وراح يتأمل فيها، وأصبح من الصعوبة بمكان أن يضع أحد قدميه بثبات لأن صاحب السجادة يستطيع فوراً أن يقطع العلاقة. وإذا حدث أن أشعل أحد الضيوف سيجارة، فإنه، في الحال. "آه.. لا يا صديقي.. عليك أن تصبر على الرغبة.. أو تستطيع أن تدخن في الخارج، على الشرفة، فهنا، السجادة ثمينة، كلفت مائة وخمس كونتات، إنها سجادة شرقية من أفخر الأنواع، وإذا وقعت عليها شظية فإني أستطيع أن ألكمك على وجهك، أعذرني على الصراحة، ولكن الأمر معي، هكذا، والأفضل من العلاج هو الإنذار".

أصبحت الزوجة عاجزة عن قبول زيارات المجاملة في بيتها، لأنه ما أن يدخل أحد حتى يبادره صاحب البيت:

– امسح رجليك هنا، في الخارج! ففي غرفة الاستقبال سجادة جديدة، بسعر مائة وخمس كونتات، وأنت تستطيع أن تفهم أنه سعر سيارة.

من يشتري اليوم سيارة بسعر مئة وخمس كونتات؟ كان هذا ما فكر فيه عندما دخل إلى السيارة هو وعائلته واتجه إلى بتربوليس: أوصى الخادمة أن تعطي اهتمامات خاصة بالسجادة.. اقترحت الزوجة أن تطويها وأن تخرجها من الاستعمال ولكن أين يمكن أن تضع هذا الجذع بطول ثلاثة

أمتار، أو طولاً بأربعة؟ كما أنه بالطي يمكن أن تندثر، لأن السجاد، وإن يكن شرقياً، صنع ليبقى ممدوداً. وكانت المرأة سعيدة: ليس بإمكان كل واحد أن يمتلك سجادة شرقية، وبالنسبة لأناس كثيرين فإن السجادة الشرقية هي مثل أعلى في الحياة!!

وفي يوم هادئ، اكتشفت الخادمة وهي حانقة، أن السجادة تفرز هنا وهناك بعض الوبر.. ففتحت النوافذ والأبواب ولكنها ظلت غير راضية فقررت أن تفرش السجادة فوق حافة الشرفة لتعريضها للشمس.

كان قد سكن في الشقة التحتية أمريكي يصل كل ليلة ثملاً وبصورة مستمرة لا تقبل الخطأ، وكان يشرب في البيت قليلاً قبل أن ينام وقليلاً عندما يستيقظ. وفي ذلك اليوم، والسجادة تسد عليه النافذة، فقد استيقظ ولكنه عاد إلى النوم لأن الوقت لا يزال مبكراً بل ليلاً. أخيراً، وقد تعب من النوم، أشعل الضوء ونظر إلى الساعة: إنها الثانية بعد الظهر.. لا يمكن أن يكون ثملاً إلى هذا الحد – ففي الساعة الثانية بعد الظهر لابد وأن يكون اليوم قد بدأ وطلع الضوء، أو ربما يكون قد قضى اليوم كله نائماً وهي الآن الساعة الثانية صباحاً!!

تقدم نحو النافذة فطلعت السجادة في وجهه، وتبين أنه لا يستطيع أن يرى شيئاً، فعاد، متوازناً، دون أن يفتش عن تفسير.. وقبل أي شيء فتش عن سكين حادة ووضعها في السجادة كما لو كانت بطن سمكة وشقها من أعلى إلى أسفل. ثم أدخل رأسه في شق السجادة ليرى ما إذا كان في الخارج ظلمة أو ضوء. ولحسن الحظ: إنه النهار! ودون أن يكلف نفسه

مزيداً من العناء، فقد سحب السجادة بقوة وعندما تمكن مـــن زحزحتـــها تركها تقع في الفضاء لتستوي في الأسفل فوق أعمال إنشائية في عمارة بدا بناؤها حديثاً.

كثيرون من الذين رأوها قلقوا قلقاً شديدًا؛ فهناك من ظن أن العمارة قد بدأت تنهار.. لقد وقع شيء ما من فوق!.. وهناك من صرخ مستفهما: ماذا في الأمر؟ هل رمى أحدهم بنفسه من أعلى؟ امرأة؟ امرأة رمت نفسها من فوق!

– لقد بدأنا بداية سيئة! هنا من بدأ برمي أثاث شقته من النافذة!! علق بهذا أحد المتعهدين وهو يحدق في السجادة.

في النهاية، يمكن القول أن سجادًا شرقيًا لا يقع كل يوم من نوافـــذ الشقق على الأقل في ذلك الشارع.

تجمع بعض الفضوليين إذ لم تكن الشرطة قد وصلت بعد. وظهـــرت الخادمة مرتعبة، وعندما رأت السجادة مشقوقة عصرت رأســـها بيـــديها وأطلقت فمها في العالم!

– يا مريم، إن سيدي سيقتلني!!!

في اليوم التالي شوهد صاحب السجادة عائداً من بتروبوليس، واتجه إلى الشقة التي يقيم فيها الأمريكي وهو مزمع على قتله قبل أي شيء آخر. وما كاد الأمريكي يقول له "يس" حتى تلقى اللكمة الأولى على وجهه:

– "جاست أي مومنت" – "جاست أي مومنت" – راح الأميركي يزعـــق مدافعاً عن نفسه – "نوفالا بورتوغيز"! "ماست بي مستيك"!

– "ميستيك" الأم التي خلفتك – يقولها صاحب السجادة وثورة الغضب آخذة منه.. ثم راح يحطم أشياء في الشقة التي يسكنها الأمريكي.. لم يكن هناك الكثير يحطمه ما عدا قنينة "فور روزس" فارغة! وأخيراً، بهدوء أنذر:

– "نو فالا بورتوغيز" – لا تتكلم البرتغالي، لا بأس، ولكن تـــدفع ثمـــن السجادة. جيد؟ انظر جيداً يا "غرينغو"، "تو باي ماي تابت"، مائة وخمس كونتات! أفهمت؟

– "ليتس هاف أي درنك" – اقترح الأمريكي.

الأميرة الحافية القدمين

تركت الشابة البرازيل وذهبت لتعيش في بروكسل بفضل منحة دراسية، وقد أخبرني صديق مشترك بمغامرتها البائسة التي عاشتها خلال سفرها إلى لندن.

في بروكسل، عاشت الفتاة في نزل امرأة يونانية تدعى "باباكابوبولس" أو شيئاً من هذا القبيل. وفي يوم قالت لها صاحبة النزل أنه لأمر سخيف جدًا أن تكون الصبية مقيمة في أوروبا دون أن تسافر، ودون أن تزور لندن القريبة جدًا! وهكذا اقتصدت الصبية بعض المال واشترت تذكرة السفر، ثم اقترحت عليها باباكابوبولس زيارة ابنتها المقيمة في لندن. غادرت الصبية باتجاه لندن مسرورة للغاية. وصلت ليلاً، تحت المطر، وبعد رحلة في السفينة وأخرى في القطار.. بين المحطة وموقف سيارات التاكسي تبللت بالماء. وحين وصلت إلى الفندق نزعت حذاءها ووضعته قرب المدفأة: تمددت على الفراش ونامت.

عند الصباح تحققت من أن الحذاء قد نشف، ولكن الجلد تقلص لشدة النشفان، وأصبح الحذاء ضيقاً فلم تدخل قدماها فيه إلا بجهد، ولما لم تكن قد أخذت معها حذاء آخر، فقد انتعلته كما هو، وخرجت إلى الشارع بخطى ثابتة ذات وقع قوي على الأرض، وراحت تفتش عن محل لبيع الأحذية.. وجدت محلاً وشرحت على قدر المستطاع أمرها، وهي تشير إلى قدميها في الحذاء الضيق.. وكان البائع ينظر إلى القدمين متجهما..

وعندما وضع نفسه في خدمتها تبين أنه لم يكن عنده أحذية ذات رقم ٣٣، فاقترح عليها الذهاب إلى محل آخر لبيع الأحذية.

والمحل الآخر لم يكن لديه هذا الرقم!.. وهكذا زارت على التـــوالي سبعة محلات لندنية دون نتيجة، يئست، وتقلصت إلى أميرة حافية القدمين، وكان هذا كل ما استطاعت لندن أن تقدمه لها.. وانتهت إلى الرجوع إلى الفندق، وقد أدميت قدماها وامتلأتا بالبقابيق.. وحاولت أن تحل المشكلة فوضعت الحذاء في مغطس الحمام وفتحت الماء لترى ما إذا كان ممكنـــاً أن يستعيد وضعه السابق مبللاً.

في اليوم التالي انتعلت الحذاء من جديد، ثم خرجـــت بغيـــة القيـــام بمشوار في الباص وكانت قد اشترت التذكرة من وكالـــة ســـياحية! أمـــا الحذاء، وهو الآن مبلل، فقد بدأ يتحلل: الكعب بدأ بالتفكك، والقـــدمان تتزحلقان، وكل خطوة طريق شهادة.. ولم يعد لديها أي شك، فـــدخلت أحد المحلات التجارية لبيع الأحذية واشترت لها زوجا هو أصـــغر حجـــم متوفر.. ومع ذلك جاء الحذاء واسعاً للغاية وذا كعـــب مرتفـــع جـــداً.. وكانت تتوازن بجهد فوق الحذاء، وعليها أن تسير وهي تجر حذاءها جـــرًا فوق الأرض كما لو كان آلة تزلج.. واستغرق الأمر أكثر من ساعة لتصل إلى محطة الباص.. وطبيعي أن يكون الباص قد انطلق، فوجدت أنها أضاعت التذكرة التي اشترتها، كما وجدت نفسها تائهة في شوارع لندن تفتيشًا عن الفندق.

تذكرت ابنة باباكابوبولس. استقلت سيارة تاكسي وأعطته العنوان ثم تنفست الصعداء وهي تفرك رجليها، وهناك وجدت نســـاء يونانيـــات عجائز يعقدن اجتماعًا فألقت بنفسها بينهم دون أن تفقه شيئًا.. حتى أنها لم تتمكن من أن تشرح لهم من هي، وسبب مجيئها إلى هناك.. بقيت جالسة، مرتاحة في الركن الذي انعزلت فيه، دون أن تعلم ماذا تفعل.. وبعـــد أن وضعت جنباً فوق جنب نزعت حذاءها ورمته على بعد مترين منها.

جمعت شجاعتها وقررت الخروج وهي تجر خطواتها ودون أن تقول لماذا جاءت. كانت الساعة التاسعة مساءً.. وكأنما بأعجوبة، تمكنت مـــن استشراف وجهتها مكتشفة الطريق إلى الفندق.. كان الشارع مظلماً وبدأ شاب يتبعها في البداية بتهذيب كأنه ظلها، وذلك في اللحظة التي كانـــت تفكر فيها بمصاص الدماء في لندن. عجلت الصبية في مشـــيتها وكـــذلك عجل الظل، كان الحذاء ذو الكعب العالي يجبرها على القيام بخطى ملتوية جذبت بالتأكيد مطاردها، أخيراً هرولت راكضة مرتعبة ومصاص الـــدماء يركض وراءها.. رمت بنفسها في مدخل المترو متزحلقة فـــوق الـــدرج، فوصلت إلى المحطة ورمت بنفسها في قطار مضى بها في الحـــال في أحشـــاء لندن.

وإذ عادت إلى الضياع فقد وصلت إلى الفندق عند الفجر. لم تـــنم أكثر من ساعتين: ها هو اليوم يجب أن ترجع فيه إلى بروكسل، وبينما تلعن تلك السفرة، أخذت طريق العودة.

لدى وصولها إلى محطة بروكسل، تنفست الصعداء: بعد قليل ستتحرر من هذا العبء الذي يثقل على قدميها.. صعدت الدرج الكهربائي.. حدث عندئذ أن كعب الحذاء الأيمن علق بين درجات المصعد الكهربائي.

كأنه كابوس لن ينتهي، حاولت عبثاً أن تحرر الحذاء من حيث علق، وبينما تتمسك بشدة بشيء يقيها العثرة علق الكعب الآخر.. المصعد الكهربائي يصعد بها وهي لا تستطيع حراكاً.. وعند الدرجة العليا والأخيرة رماها المصعد منبطحة أرضًا، ولكنها كانت قد تحررت من الحذاء الذي اختفى في الحال بين الدرجات.. تعطل المصعد وظل المسافرون واقفين كالتماثيل في متحف الشمع مما جعلها تنطلق بضحكة مقهقهة وهي تفترش الأرض.. نهضت أخيرًا وخرجت إلى الشارع حافية القدمين.. في سيارة التاكسي انفجرت بالبكاء.. ندم قاتل ينال منها.

ليس غريبًا، في النزل، عندما سألتها باباكابوبولس عما إذا كانت السفرة قد راقت لها، أن تجيبها، باللغة البرتغالية، بلفظة من تلك الألفاظ الغليظة!

ديناميت

كلما مر السفير من ناحية الشاطئ عند مدخل الأميرة إيزابيل، فــإن هيكل عمارة قيد الهدم كان يسبب له أزمة، وهو مرتفع إلى أعلى السماء، فإن ذلك الوحش المصنوع من الأسمنت كان يذكره بمدينة مقصوفة، مثــل وارسو، مثلا، بخرائبها المتراكمة خلال الحرب، وفي يوم من الأيــام بلــغ السيل زباه فلم يعد يستطيع أن يتحمل، وبعد اجتماع مع الرئيس اغتــنم الفرصة ليسأله لماذا لا يستعجلون في تنفيذ الهدم:

كان قد علم بأنهم سيستغرقون أربعة أشهر لهدم تلك العمــارة مــن أعلى طابق إلى الأسفل، وليس أكثر إزعاجًا من خرائب كتلــك في قلــب جادة "أتلانتيكا" ولماذا بدلًا من استعمال المطرقة لا يستعملون شيئًا حديثًا كالمطارق الكهربائية مثلًا؟

أبدى الرئيس اهتمامه في الحال:

– مطارق كهربائية؟

واتصل برئيس البلدية:

– أليس من طريقة لإنهاء العمل في تلك العمارة التي هي قيد الهدم في جادة "أتلانتيكا"؟ إنه لمشهد محزن، ويوحي بمشهد خرائب الحرب، كأنها وارسو!

– مطارق كهربائية – أضاف السفير بحماس.

– بمطارق كهربائية يمكنكم أن تنهوا العمل ببراعة.

وعد رئيس البلدية باتخاذ الإجراءات الفورية ثم أقفل سماعة الهاتف مفكراً: "مطارق كهربائية؟" – لم يكن قد سمع أبداً بهذا.

مضى السفير إلى بيته راضيًا. لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا، وعند المساء كان يتعشى هنالك في "كوبا كابانا" عندما سمع ضجيجًا في الشارع:

– ماذا يمكن أن يكون هذا الضجيج، يا إلهي؟

مر من هناك أحدهم راكضًا:

– سيهدمون العمارة.. وركض السفير أيضًا، بدت المسألة كأنما ثورة قد اندلعت. واحتشدت الجموع مصطفة من هناك إلى أبعد من الليدو، وكانت طائرات مروحية تجوب الفضاء فوق المكان.. أوقفت حركة المرور: جنود مسلحون يعزلون الحي الكبير عن كل حركة – طائرة.. قفز السفير من سيارته وفتح لنفسه طريقًا باتجاه المكان الذي هو موضع الانتباه.. وتأمل في هيكل الأسمنت الذي سيتم هدمه.. الهمس يطوف على ألسنة الناس ترافقه رغبة في المعرفة وانتباه مركز.. سيتم استعمال الديناميت.

– ديناميت؟

عصر السفير رأسه بيديه متمتماً: – مجانين! إنهم مجانين! ولدى عثوره على أحد المهندسين المسؤولين عن العملية:

– هل رأيت كيف يغالي الناس في أحكامهم؟ إنهم يقولون أنكم ستستعملون الديناميت.

– سنستعمله، نعم – وغدا المهندس محتارًا: – لماذا؟

بدأت ساقا السفير تهتزان:

– ولكن أليس الأمر خطيرًا؟ يمكن أن تهدموا عمارات أخرى وأن تقتلوا جمعًا غفيرًا من الناس.. ثم توجد على مقربة منكم محطة بنزين.. انظر، ماذا يحدث إذا انفجرت كلها؟

– أخطير الأمر – أجل إنه خطير.. لكن الأوامر هي الأوامر...

– ولكن ليس من الضرورة أن تقوموا بالعمل بهذه السرعة كلها.. تمتم السفير:

– لماذا لا تستعملون شيئاً آخر؟

– ماذا يريدنا السيد أن نستعمل؟ – ابتسم المهندس...

– مطارق كهربائية، مثلًا..

– مطارق كهربائية ما هذا؟ ما هي المطارق الكهربائية؟

– طيب.. أعتقد أنه لابد من أن يكون هناك شيء أكثر فاعلية!

– أكثر فاعلية من الديناميت لا يوجد إلا القنبلة الذرية – مازح المهندس.

مكث السفير يقضم أظافره حزنًا.. ولدى إنذار السلطات ابتعد باتجاه رمل الشاطئ ينتظر لحظة الكارثة.. لم يعد من مجال لعمل شيء.. كان بقربه شخص يقول:

– ايتا برازيل! أنهم سيهدمون الحي بكامله.

بعض التعليقات الخفيفة الأخرى كانت تسمع هناك. وماذا لو اتصل بالرئيس طالبًا إليه إيقاف ذلك العمل الجنوني؟ سيلن نفسه لو أنه اقترح ذلك. لم يعد هناك متسع من الوقت. الآن يجب توقع ما هو أسوأ.

وصلت اللحظة! كان المهندس يعد الثواني.. دوي انفجار هائل.. لم يحدث شيء.. العمارة لم تتحرك.. عندما عبرت غيمة الغبار وتبدد الدخان ظل ممكنًا رؤية العمارة واقفة بكل أعمدتها.. وأخذت التدابير اللازمة لمضاعفة العبوة.

– مضاعفة العبوة؟!! ارحمني يا الله. كانت الساعة العاشرة وتم تعيين الثانية صباحًا للانفجار الجديد. ولم يكن السفير ليبتعد خطوة واحدة عن المكان لو لم يتذكر موعدًا مهمًا في تلك الليلة. موعد؟ هل يريد موعدًا أهم من هذا الموعد مع مئات الأشخاص المهددين في حياتهم بسببه؟ وانتظر كشهيد لحظة تنفيذ الحكم.

في النهاية، عندما انهارت العمارة راح يشق طريقًا عبر الغبار: ألم تقع ضحايا؟ قولوا لي أليس من ضحايا؟

غادر المكان، فقط، عندما تحقق من أن كل شيء قد مضى بسلام وكان الهدم انتصارًا.. فيما بعد، في ملهى "ساشاس" فتح الشامبانيا ليحتفل مسرورًا سعيدًا.

– للاحتفال بأي شيء؟ – سألوه

– بالهدم. لم تقع هنالك ضحايا.

هرولة في محطة قطار نابولي

كان الوصول إلى المحطة سهلًا، فالطريق السريع يقود مباشرة إلى هناك أما محطة نابولي فيمكن تمييزها في الحال: تعرضت لقصف جوي مكثف خلال الحرب التي انقضى عليها خمسة عشر عامًا، وفقط، اليوم بدأوا الترميم فيها. كنت مزمعًا على الرجوع إلى روما في تلك الليلة بالذات.. ولم يكن عليّ سوى أن أعيد السيارة التي كنت قد استأجرتها، وأن أدفع التكاليف.

– القطار التالي سينطلق في السادسة والدقيقة الثامنة والثلاثين – قالوا لي.

ضبطت ساعتي على عقارب ساعة الحطة. كانت الساعة السادسة تمامًا. لا يزال لدي متسع من الوقع، عدت إلى السيارة ورحت أقود كمجنون في شوارع نابولي التي أجهلها كلياً.. وكانت وكالة السيارات بعيدة، وفي مكان يدعى "ريفييرا دي كيايا".. وكان عليّ أن أجتاز المدينة كلها.. سابقًا استغرق الذهاب في سيارة الأجرة عشرين دقيقة – ولكني أستطيع أن أختزلها إلى عشر دقائق إذا تمكنت من إقناع السائق بتجنب اجتياز المسافات غير الضرورية التي يتبعها ليزيد التعرف، على الطريق النابوليتانية.. إذا أسعفني الحظ فسيمكنني أن أصل خلال عشر دقائق.

وصلت خلال خمس عشرة دقيقة بعد الوقوع في الازدحام بين الشاحنات وسيارات النقل الكبيرة.. وكنت أهتز في تلك السيارة الشبيهة

باللعبة وأنحرف يمنة ويسرة، وأنا أحاول أن أتبع الوجهة التي كنت قد خططتها على الخريطة المفتوحة بجانبي، ويبدو أنني أيقظت انتباه رجال شرطة المرور، وأنا أسجل تلك السرعة كانوا يدفعونني إلى التقدم بحركة عصبية من أيديهم في كل مرة كنت أتسبب في توقف المرور لأستعلم عن شيء ما بلغه إيطالية مخربة.

وصلت. حاولت أن أدفع الحساب بأسرع ما يمكن كيما أندفع إلى الخارج ولكن الرجل استقبلني بسحنة عصبية. فحص السيارة ليتأكد من أن كل شيء منتظم وأجرى الحساب ومعه حسابات عديدة. وتبين كم من الكيلو مترات اجتزت وكم لترًا من الوقود أحرقت!

– حبًا بالله. أسرع لأن عليّ أن أستقل قطارًا.

في النهاية سمح لي بالانصراف وقد بلغت الساعة السادسة والعشرين. دفعت بنفسي إلى داخل سيارة تاكسي! إلى المحطة بسرعة، ومباشرة! أمامي عشر دقائق لأستقل القطار.

إذا كنت وصلت خلال خمس عشرة دقيقة فبإمكانه أن يعود خلال عشر دقائق. وكان المرور في العودة أسهل منه في المجيء. ورحت أجري حسابات سريعة: عشر دقائق للوصول، ثلاث دقائق لشراء التذكرة، دقيقة لأستعلم عن أي نقطة سينطلق القطار، وكانت هذه المسألة غير متوقعة وقد سقطت من حساباتي سهوًا إذ كان هناك عشرون نقطة انطلاق للقطارات المتتالية

فجأة تذكرت الحقيبة التي كنت قد تركتها في مستودع الأمانات قبل يومين عندما وصلت – وكدت أعود إلى روما دون حقيبة! يلزمني على الأقل ثلاث دقائق لأستعيدها، مع هذا الوقت يكون المجموع سبع دقائق: إذا وصلت في السادسة والنصف سيكون لدي دقيقة واحدة في مصلحتي.

– بسرعة أيها السائق – وفي داخلي كنت أتمتم: بسرعة أيها الخنزير البائس.

– لقد فقدت القطار على ما يبدو.

– مازال أمامي ثماني دقائق.

فكر قليلاً. خفف سرعة السيارة ليفكر أكثر. عاد يتكلم معي جازمًا:

– هل تريد أن تعلم شيئًا؟ سنصل على الوقت، ما عليك إلا أن ترى.

نخع السيارة نخعة ذهبت بها إلى طريق الشاطئ الأطول ولكنه أصبح أقصر وفقًا لاجتهاد منه لم أستطع أن أفهمه، وخرجنا بطريقة مجنونة. نظرت إلى الساعة: إنها السادسة وست وثلاثون دقيقة.

– لم نفقد شيئًا – قام هو بردة فعل كما لو كان سيسافر أيضًا: انظر لقد وصلنا.

دفعت الأجرة. خرجت مندفعًا دون أن أستعيد المتبقي من الحساب. وفي نافذة الاستعلامات لم أتماسك نفسي:

– إلى روما؟

– النقطة ١٢

تخليت عن فكرة شراء تذكرة، سأشتريها من داخل القطار إذا أمكن وإذا لم يكن ممكنا فليرموني من النافذة.. أمـــا أن أغـــادر، فســـأغادر.. في مستودع الحقائب، أظهرت وصل الاستلام، بسرعة! قطار كـــان يصـــفر، وكانت صفارة الانطلاق تولول منذرة كما في غارة جوية. جلـــب أمـــين المستودع الحقيبة لم تكن حقيبتي، الأخرى، الأخرى. مسألة الصـــعود إلى القطار أصبحت الآن مسألة موت أو حياة، ولن أستطيع أن أمضي الليـــل في نابولي وأنا لا أعرف ماذا أفعل وإلى أين أذهب. تناولت أخيرًا الحقيبـــة وخرجت راكضًا خرج الرجل في أثري مستعجلًا:

– انتظر!

أمسكني بعصبية.

– ماذا؟

– وصل الاستلام. لم تعطني الوصل.

الوصل هو الذي نسيني، أعطيته إياه وركضت. تأخير: على مسافة ثلاثة أمتار من القطار راح يبعد نفسه عني متمهلًا ويتركني مع كـــل دورة عجلة أكثر تأخيرًا. وقفت. مسحت عرق وجهي. رغبت في الضحك: أية حماقة هي حماقتي من أجل هذه الهرولة كلها؟

بعد قليل رأيتني أكثر حماقة.. عندما عدت لا تحقق من الأمر أعلموني ببساطة أن قطارًا ينطلق إلى روما كل نصف ساعة!!

اجتماع الأمهات

في اجتماع الآباء لم يكن هناك إلا أمهات. أحسست بنفسي غريبًا وسط هذا العدد الغفير من النساء، مع كل ما لديهن من كياسة وحلاوة. وكان ممكنًا أن أمتنع عند الدخول لو لم أتبين في الحال أن ثلاثة ذكور كانوا متوزعين هناك، في قاعة الاجتماعات، يقاسمونني القلق الأبوي على الأبناء.

جلست في أحد الصفوف الخلفية حتى لا أخرج عقدة النوع في هذه الجمعية المنتخبة للمحافظة على النسل. واحدة منهم كانت تحوك الصفوف، وأخريات عديدات يتبادلن الأحاديث، وكن قد ارتبطن برباطات أخوية في اجتماعات سابقة.. أما الأب المدير فقد اتخذ له مكانًا على الطاولة وأحاطت به المعلمات ثم افتتح الجلسة.

كنت قد جئت لآخذ ابني بيدرو إلى الطبيب، ولكن في هذه المرة وقع عليّ أيضًا واجب المشاركة في الاجتماع قبل أي شيء. وفي نهاية المطاف شعرت بواجب التحقيق بنفسي من السرعة التي يسير بها ابني.

كان الأب المدير قد بدأ يزن الاعتبارات فيما يتعلق بالزي الذي يجب أن يُعتمد، هل تكون ربطة العنق زرقاء؟ – سألت إحدى الأمهات. هل تكون الجوارب ثلاثة أرباع؟ – سألت الأخرى. وامرأة أمامي، أرادت أن تعلم إذا كان هناك ضرورة للخياطة من الخلف، ولكن سؤالها وسط اللغط لم يسمع.

حسدهن على هذه الطلاقة. رغبت أنا الآخر في أن أسأل عن شـــيء ما، حتى يكون اهتمامي كأب أكثر فعالية، ولكنني صرت خائفًا من تلـــك الأمهات وهن يدرن برؤوسهن نحوي دفعة واحدة، متفاجئات بصوت رجل جهوري أو ربما متذبذب لأن صاحبه قد فقد الثقة بالنفس.. كما يمكن أن يمر سؤالي غير مسموع أيضاً – وإذا حدث مثل هذا الأمر فسأختفي داخل كرسي. لم يخطر في بالي شيء أسأل عنه أفضل من السؤال عما هو المعـــنى بالخياطة من الخلف.

انتهيت إلى الاستنتاج أن أسئلة كهذه يمكن أن تقلل من الهيبة الـــتي يجب أن نحافظ عليها في الاجتماع في كوننا مسؤولين عن مصير أبنائنـــا. وتخليت عن فكرة التدخل ورحت أصغي إلى شرح الأب المدير:

– وصلنا الآن إلى النقطة التي تهمنا جميعًا: الصف الابتدائي الخامس؛ فنتيجة اختبار دقيق تم تقسيم هذا الصف إلى ثلاث مجموعات: المجموعـــة ١٤ المكونة من البارعين، المجموعة ١٣ من العاديين، والمجموعة ١٢ مـــن المشاغبين، والمتخلفين، والمعيدين وذوي الحركة الدائمة، وغير النظاميين، إن تلاميذ المجموعة ١٣ لم يصلوا بنا بعد إلى مرحلة انقطاع الأمل، ولكن الذين في المجموعة ١٢ فأستطيع أن أؤكد أنهم لن يتقدموا إلا بصعوبة كبيرة، لأنهم لا يريدون شيئاً من العلم!

مكثت أصغي بكل جوارحي: في أية مجموعة سيكون ابني؟ اعتقدت أن المدير سيقرأ أسماء كل مجموعة، وابني بالتأكيد سيكون في المجموعة ١٤لم يقرأ المدير الأسماء احترامًا للأمهات اللواتي لديهن أبناء في المجموعـــة ١٢

العديد منهن كن يعلمن بذلك فرحن يتكلمن معاً في الوقت نفسه: لـــيس الذنب بذنبهن، لديهن واجبات كثيرة في البيت، هن غير متكيفات مع نظام نصف- الداخلي، أما المرأة التي تحوك الصفوف، إذا لم أخطئ فقد وصل بها الأمر إلى أن تتذمر من التعليم الموجه، لأنه ينظرها لا يـــؤدي إلى نتيجـــة.. وامرأة أخرى قالت أن لديها ثلاثة أبناء يتقدمون مـــن الامتحـــان بـــنفس الوقت، فكيف يمكن تحضيرهم لذلك في نفس الوقت، أما الأب المدير فقد حنى رأسه قليلًا وهو يبتسم باســـتظراف – لا أســـتطيع أن أتأســـف لأن للسيدة هذا العدد من الأولاد، وعاد ليتكلم عن المرتعصين وهم حالة جدية جدًا.. لن يقول هذا الأب أن ابني من بين هذه المجموعة!.. أن يكون ابني ذا حركة دائمة وفوضويًا فهذا صحيح، ولكنه بسبب ذلك نال مني ما نال "كم واحدة" من أسوأ ما هو موجود!

ولماذا لا يكون؟ لأنه هادئ، متكيف مع التوجيهـــات، ابـــن أبيـــه "وماريا- تذهب- مع- الأخريات" ولكنه لم يكن مرتعصا، ولم يكن مـــع الآخرين بمجرد أن يكون. تحدث المحاضر وأنا أفكـــر في هـــذه الأمـــور؛ وأشعلت سيجارة: لا يحق لأحد بالتدخل في هذا الأمر.. إن ابني لا يـــزال طفلًا، في سن اللهو وعدم أخذ الأمور بجدية إلى هذه الحد، ولكن ما يـــثير فضولي هو أنه لا يبدو عاقلًا، فكان يلعب بالكرة في الشـــارع، ويشـــاهد التلفاز، ويلهو بلعبة اللصوص، ولكنه في ساعة الدرس كان يدرس.. فهل أنا أعمى؟ من يدري؟ ربما يكون بحاجة إلى أن أساعده بأن أمد له يـــدي.. ولكني لم أعد أحفظ في ذاكرتي هذه الأمور التي يتعلمها وعليّ أن أتعلمهـــا من جديد. ففي يوم، مثلًا، أحرجني عندما سألني ما إذا كنت أعرف كيف

ينادى الذي يولد في غينيا الجديدة. لا أحد يعرف هذا يا بني! أجبت بثقة. آه لا تعلم؟ أجل هو كان يعلم: "غينيو" ما يقول كان صحيحًا. ربما يكون في المجموعة ١٣، والحمد لله أنه كان يعرف شيئاً ما، الملعون.

الآن بدأ المدير يتكلم عن الطعام الذي يقدمونه على الغذاء. أنه من أفضل الأنواع، ولكن هنالك مشكلة، أما الأولاد فكانوا يرفضون أكل الخضار وهو كان يسعى إلى أن يجعلهم يأكلون للمحافظة على الرشاقة المناسبة. ومع ذلك فإن بعض الأمهات لم تتعاونَّ. كن يرسلن طلبات مكتوبة يطلبن فيها ألا يضعوا خضارًا للأولاد.

هذه مسألة لم أعرف قط كيف أفسرها: لماذا لا يحب الأولاد الخضار؟ عندما كنت أنا ولدًا لم أكن أحب الخضار.

يطلبون إلى الأمهات أن يرسلن طلبات مكتوبة، وليس هذا وحسب: فإنهم كانوا يلجأون إلى أية حجة حتى لا يأكلوا. اليوم بالذات جاءني أحد التلاميذ بكتاب من أمه تقول فيه: لا تجبروا ابني على أكل الخضار. ولكن الكتاب كان مكتوبًا بخط التلميذ نفسه.

حانت الساعة لأخذ ابني إلى الطبيب، فذهبت معلمة صديقة لتأتي به.

– يا ابني – سألت مرتبكًا، ما أن خرجنا: – في أية مجموعة أنت؟ في المجموعة ١٢ أو ١٣؟

– في المجموعة ١٤ – أجاب غير مكترث. فتنفست بارتياح:

– سعيد بذلك – اكتفيت بالتعليق.

لم يضع الوقت.

– إذًا أريد أن أطلب منك خدمة.. وهي أن ترسل إلى الأب المدير رسـالة تقول له فيها أنني لا أستطيع أكل الخضار.

الرجل العاري

عندما استيقظ من نومه، قال لزوجته:

– اسمعي، يا بنيتي: اليوم هو موعد دفع إيجار التلفاز، وسيأتي الجابي إلى هنا بالتأكيد. ولكن حدث أنني لم آت معي بالمال من المدينة، إنني لا أحمل نحاسة واحدة.

– اشرح كل هذه للجابي – علقت المرأة على الكلام.

– لا أحب هذه الأشياء التي تضعني في مأزق نفسي حرج، إني أحب أن أدفع في الحال ما هو متوجب عليّ. اسمعي: عندما يأتي يجب أن نلزم الهدوء، ودون أن نقوم بأية ضجة. فيعتقد بأن لا أحد هنا. دعيه يضرب على الباب إلى أن يتعب– غدًا أدفع.

بعد قليل، وبعد أن نزع سروال النوم واتجه إلى الحمام ليستحم وجد أن زوجته في الداخل قد أقفلت على نفسها. وبينما ينتظر، انتهى إلى أن يعد القهوة وضع الماء فوق النار ليغلي وفتح الباب ليتناول الخبز الذي يضعه الموزع عند المدخل الخارجي للشقة. وإذ كان عاريًا كليًا، نظر بحذر إلى جهة ثم إلى الجهة الأخرى قبل أن يجازف بخطوتين لتناول لفة الخبز التي تركها الموزع فوق رخام الأثاث الموضوع خصيصا لهذا الغرض.. ولم تكد أصابعه تصل إلى لفة الخبز حتى رأى الباب قد أوصد بشدة نتيجة دفعة هواء قوية.

أصيب بالرعب، اندفع نحو جرس المترل، وبعد أن قرعه وقف ينتظر، وهو ينظر بارتباك إلى الممر. سمع في داخل الشقة ضجيج الماء قد انقطع فجأة في الحمام ولكن لم يأت أحد ليفتح له الباب.. كانت المرأة في الــداخل قــد اعتقدت بأنه جابي مكتب تأجير أجهزة التلفاز. وعاد الرجل يقرع البــاب برؤوس أصابعه:

– ماريا! افتحي لي يا ماريا.. هذا أنا – كان ينادي بصوت منخفض.

على قدر ما كان يقرع على الباب، كان الصمت يزداد في الداخل. وفي هذه الأثناء سمع في الطابق التحتي باب المصعد ينغلق، وسمع أحــدًا في العمارة يصعد ينغلق، وسمع أحدًا في العمارة يصعد بتمهل على السلم.. إنه بلا شك جابي التلفاز.

لا.. لم يكن هو نفسه.. لجأ إلى داخل الدرج بين الطوابق، وانتظر أن يمر المصعد، ثم عاد إلى باب شقته وهو يمسك مع عصبية شديدة لفة الخبــز بيديه:

– ماريا، رجاءً! هذا أنا!

هذه المرة لم يكن لديه وقت كاف للإلحاح: سمــع خطــوات علــى الدرج، بطيئة، منتظمة. آتية من تحت إلى فوق.. أخذته موجة الاختيــار، نظر إلى الممر، وقد اتخذ وقفه ملتوية، ووضع يديه على عريه، وهو يمسك بخيط اللفة ويبدو كمن يقوم برقصة باليد جريئة دون أن يجيدها. الخطوات على الدرج بدأت تقترب وهو لا يعرف أين يخبئ نفسه. ركض إلى المصعد وضغط على الزر..

كان لديه الوقت ليفتح الباب ويدخل إلى المصعد، وكانت الخادمة قد مرت، منهكة، تشتم لأنها مضطرة إلى أن تصعد طابقًا بعد. تنفس بارتياح، وهو يمسح عرق جبينه بلفة الخبز، ولكن ها هو الباب الداخلي في المصعد قد أقفل وبدأ يهبط:

آه.. كل شيء ولا هذا الشيء! الرجل العاري بدأ يقفز هلعًا في داخل المصعد.

والآن؟ ربما سيفتح أحدهم باب المصعد ويراه عاريًا، كما خلقتني يا رب ويمكن أن يكون أحد الجيران الذين يعرفهم.. وإذا تبين أنه كان يبتعد أكثر عن شقته، بدأ يشعر بأنه يعيش كابوسًا من كوابيس كافكا، وعرف عندئذ اللحظة الأكيدة التي يبلغ فيها نظام الرعب ذروته.

فتح باب المصعد وأجبر الأخير على التوقف بين الطوابق. تنفس بعمق وأغمض عينيه ليوهم نفسه وإن برهة أنه كان يحلم. بعد ذلك جرب أن يضغط على زر شقته.. في الأسفل لم يعودوا يكفون عن استقدام المصعد إليهم. قبل أي شيء: "حالة طوارئ – إيقاف" جيد جدًا. والآن؟ هل سيصعد أو يهبط؟ وبحذر شديد رفع إصبعه عن "حالة الطوارئ" وترك الباب يقفل، في حين راح يلح وصعد المصعد ليجعل المصعد يصعد إلى أعلى.

– ماريا! افتحي هذا الباب! كان يصرخ، هذه المرة وهو يدفع الباب ويضرب عليه بقوة، ودون أي حذر، سمع أن باباً آخر خلفه قد فتح. أدار ظهره باللفة.. إنها عجوز الشقة المجاورة:

– صباح الخير يا سيدتي – قال لها مرتبكاً – تخيلي أنني.

العجوز، مندهشة، رفعت يديها إلى السماء، وأطلقت صرخة:

– نجني يا الله! الخباز عار كما خلقته!

وركضت إلى الهاتف لتنادي على الشرطة:

– يوجد رجل عار هنا، على باب شقتي.

الجيران الآخرون، وهم يسمعون الصراخ، جاءوا لـــيروا مـــاذا في الأمر:

– إنه منحرف!

– أنظر! أية وقاحة!

– لا. لا تنظري! إلى الداخل فورًا يا ابنتي!

أما ماريا، زوجة التعيس الحظ، فقد فتحت الباب في النهاية. ترى ما الذي يجرى هناك؟.. دخل هو كالقطة إلى شقته وارتدى ملابسه على عجل دون أن يتذكر الحمام. بعد عدة دقائق، عاد الهدوء في الخارج، ثم عاد باب شقته ليقرع.

– لابد أنها الشرطة قد وصلت – قال هو، وإذ لا يزال يلهث ذهب ليفتح الباب: لم تكن الشرطة إنه كان جابي مكتب إيجار التلفاز.

صياح الديك

كان رجلاً يتلقى الضرب من امرأته. الجميع في المدينة كانوا يعلمون بذلك. منذ أن تزوج كان يصل إلى البيت ليتلقى الضرب المتواتر يوميًا، ولأدنى سبب: هل هذه هي ساعة الرجوع من الشارع؟ ما بك تنظر إليّ هكذا! هل رحت تشرب مرة أخرى؟ وخذي يا رقبة الزوج! في النهاية لم يعد من داع لوجود سبب: كان يكفي أن يصل ليتلقى! كان بإمكانه أن يقوم بردة فعل، لو أراد، فالمرأة كانت أضعف منه وأقل قوة. ولكنه بدلًا من أن يرد كان يكتفي بالدفاع عن نفسه بذراعيه فوق رأسه: ما هذا يا امرأة؟ هل فقدت عقلك يا امرأة؟ الجيران يمكن أن يسمعوا! منذ أن تزوج وهذا هو الوضع: ولأكثر من تسعة أعوام. بديهي أن الجيران كانوا يسمعون، وكانوا يشاركون تقريبًا في ذلك المشهد اليومي: بعض الأحيان كان الأكثر فضولية منهم يأتون ليتجسسوا عبر النوافذ المطلة على الشارع، والتي كانت منخفضة.

مع الوقت، فإن المسكين لجأ إلى تعاطي الكحول، وكان يظل جالسًا في الدكان المجاور كل اليوم مشتكيًا للأصدقاء القليلين الذين لم يكونوا يشعرون بالحرج في أن يجالسوه.. إنه العار يا جوزيه، لا تستطيع أن تستمر هكذا – ولكن ماذا تريدني أن أفعل؟ إن زوجتي وحش. حاول أن تقنعها، فقط لترى ماذا يمكن أن يحدث. ولكن ما هو أكثر إحراجًا أن المرأة مع الآخرين لم تكن وحشًا ولا شيئًا من هذا القبيل، وكانت تتعامل مع الجميع

بنعومة وتهذيب.. ولم يكن أحد يجرؤ على أن يسألها لماذا كانت تسئ معاملة زوجها إلى هذا الحد.. هناك نوع من البشر يجب أن يتلقى الضرب — كان ذلك ما يقوله الآخرون الذين ابتعدوا في النهاية عنه مديرين له ظهــورهم ليشكلوا فيما بينهم حلقة على طاولة أخرى. وكان يبقـى هـو وحيـدًا ليشرب.. وأن يشرب أيضًا بهذا الشكل، وباستمرار، فليس مـن امـرأة تستطيع أن تتحمل ذلك.. ولكن يا ابني أنه يشرب بسبب امرأتـه! أمـا أصحاب الخبرة فكانوا يكتفون بهز رؤوسهم: إنه العار. أنه ليس رجلًا. معي لا يمكن أن يحدث شيء كهذا.

خلال تسعة أعوام والسبحة تتكرر.. وغدا الرجل شبيهًا بممســحة لكثرة الشرب وتلقى الضربات.. في العمل قاطعوه، فترك الوظيفــة، وإذا كانت المرأة تريد أن تضرب فهناك أسباب عديدة أخرى: كأن يسير الزوج مهملًا هندامه، وبذقن غير حليقة، وهو يشرب دائمًا أو تفوح منه رائحــة الكاشاسا ويؤخر بقدر ما يستطيع ساعة الرجوع إلى البيت. ولكنه كــان ينتهي إلى الرجوع لأنه لم يكن يريد أن ينام في الشارع. ويكفيه أن يقــرع قليلًا على الباب حتى تشده المرأة إلى الداخل، بالضربات المتلاحقة، وتجعله يقول يا إله السماء ماذا فعلت يا امرأة حتى تعامليني بهذه الطريقة وكــان يذهب للبكاء في السرير الذي هو مكان دافئ في النهاية.

كان يوم تعجب عارفوه من غيابه عن دكان الركن. كــان ذلــك الدكان هو المكان الأخير الذي يأوي إليه، بعد أن يجــول في الــدكاكين الآخرين جولته التقليدية، قبل أن يذهب إلى البيت لمواجهة الغضب.. هل

يمكن أن يكون قد وقع يتعتعه السكر فلم يتمكن من الوصول إلى هنا؟ أو أن المرأة قد لحقت به مفتشة عنه في الشارع، فرافقته إلى البيت كما يقاد الثور إلى المجزرة.. لا شيء من كل هذا، ها هو يأتي من عند الركن، ماذا حدث يا ترى؟ أنه اليوم في أحسن حلة، الشعر مزين ومسرح جيدًا، الذقن حليقة ويسير بخطوات ثابتة، ويبدو كأنه واحداً آخر. ماذا حدث لك يا جوزي؟ أحاط به الجميع بينما هو قد استوى خلف الطاولة وطلب كأساً صغيرة من الكاشاشا. ماذا حدث؟ ألم تروني أبداً؟ وأرسل الآخرين بحركة من يده، وعاد إلى جلسته الوقورة، وضع رجلا فوق رجل، وراح ينظر إلى الشارع ويحس بأن الوقت لا يمر سريعًا. وعندما حانت الساعة، قلب كأس الكاشاشا دفعة واحدة إلى جوفه، ومسح شفتيه بردن سترته، ثم وقف منتصبًا: "اليوم يومك" لحق به الآخرون متجهمين، متسائلين، ماذا حدث؟ إنه جوزيه، فقد فرط فيه شيء ما، ولم يشرب شيئًا تقريبًا، يبدو جميلًا بعينين لامعتين، وقد جاء فقط ليعلن: "اليوم سترى" وتابعوا لاحقين به، بمن فيهم لاعبو البلياردو الذين لم يتسن لهم أن يتركوا العصا في أماكنها قبل أن يخرجوا لأنهم أرادوا أن يعلموا ماذا حدث لجوزيه. وراحت الزمرة تضخم الأمور، وجاءت المدينة كلها تقريبًا إلى الشارع: فقد سرت إشاعة في ذلك اليوم مفادها أن جوزيه كان عازمًا على الإجهاز على صنف النساء والجميع يريدون أن يروا.

اجتاز جوزيه الشارع، وصعد الدرجات الثلاث من الأسمنت المؤدية إلى بيته وقبل أن يقرع الباب، نظر إلى ساعة يده ليتأكد من أنها كانت الساعة التي تعوَّد فيها أن يصل في الأيام الأخرى. من الناحية المقابلة

للشارع كان الفضوليون يحافظون على المسافة الضرورية — كان يمكن أن يتم إطلاق رصاص – ولكنهم كانوا يرهفون آذانهم وعيـــونهم حـــتى لا يضيِّعوا أي تفصيل من تفاصيل المشهد.

قرع جوزيه على الباب وجاءت المرأة لتفتح الباب. رأته واقفًا أمامها مستقيمًا، مسرحًا شعره وحالقًا ذقنه، وينظر في عينيها بثبات. ومن فـــوق أكتاف الرجل رأت الزوجة الجموع واقفة من الجهة المقابلة وفتحت فمها لتسأل عما كان يعني ذلك. ولكنها ما كادت تتفوه بالكلمة الأولى حـــتى كان جوزيه قد رفع ذراعه وهوى بها بصفعة مدوية على وجهها رمتـــها في الداخل ككيس فارغ. تقدم منها وهو يضرب كفًا بكف قبـــل أن يقفـــل الباب محييًا المشاهدين وقائلًا لهم: عن إذنكم.

وإذ أقفل الباب بدأ بإعطاء الأمثولة للمرأة وهرع الجميع إلى النافذة ليشاهدوا، وشاهدوا كل شيء بعيون مفتوحة، والمرأة تصرخ ما هذا يـــا جوزيه! هل جننت، إنك تكاد تقتلني، ما هذا يا زوجي الحبيب، لا تفعـــل هذا الفعل معي أرجوك.

أما جوزيه فمع كل صفعة على الرقبة لم يكن يقول لها سوى: خذي خذي، وخذي أيضًا، مع صدى قوي كان يتردد للصفعة، والجميع وصلوا إلى مرحلة الخوف من أن يكون قد قرر قتل الزوجة بيديه — وهي تستحق هذا، وافق الجميع على ذلك، بحماس، وهي تستحق لتتعلم أنـــه لا يجـــب ضرب الرجل بتلك الصورة لأنه إذا أصبح رجلًا في يوم فستشتعل الأمور، وأنتم ترون الآن بأعينكم، أليس كذلك؟

ومنذ ذلك اليوم لم يعد جوزيه يقبل بأن يضرب. توقف عن الشرب، وكان يمر بالدكان ليتناول جرعة واحدة من الكاشاشا بسرعة، وهـذا لا يمكن أن يسئ إلى أحد وبرفقة الأصدقاء الذين عادوا ليحيطوا به، وعـاد محترمًا من الجميع وحتى في عمله إذ كان قد عاد إلى الوظيفـة.. وعلـى الأخص من المرأة التي كانت تعترض، وتزعق، وتبكي، ولكنها في الحقيقـة كانت ترى ذلك جيدًا وأخذت تعامله بعطف، يا جوزيه، يا رجلـي، يـا زوجي الحبيب، يا غجري – وكان هو يقوم قبل أي شيء – بأن يهـوي بذراعه على رقبة الزوجة عند وصوله.

علاج في "بورتو الليغري"

تمددت في الفراش في الساعة الثالثة فإذا بي، في الخامسة، مصاب بوهن عجوز متلف، وبألم لا يحتمل في ظهري. لم أعد أستطيع أن أتحرك في الفراش إلا بجهد يزيد من الألم، ومع ذلك تمكنت من أن أميل قليلًا، وأنا أزأر، لأتبين سبب الوجع: كان يدخل من درفة النافذة المفتوحة "نصل" لفحة باردة من هواء "بورتو الليغيري"، كنصل خنجر حاد، مباشرة، ليصيب ظهري، وناديت على رفيقي في الغرفة فلم يستيقظ: كان يغط في شخيره كأنه آلة نوم – وينام بملابسه الداخلية، ولكن لحسن حظه بعيدًا عن النافذة، ومن كان يتلقى تفريغ الهواء في الغرفة فأنا نفسي، وانتهيت إلى أن أتصل بعاملة هاتف الفندق:

– أكاد أموت ألمًا في ظهري، لا أعرف أي نوع من العفاريت يتمسك بي.

– أنا أعرف – أجابت الخبيرة: – أنك لست أول نزيل في الفندق يشقه برد الجنوب إلى شقين. سأرسل إليك السيدة "فاندا" وستقوم باللازم.

– من هي السيدة فاندا؟ – سألت قلقًا.

– إنها ممرضة الفندق.. يمكنك أن تطمئن.. إنها المهارة بنفسها.

بعد دقائق، السيدة فاندا، المهارة بنفسها، ظهرت في الغرفة كأنها دخلت من نافذة تم فتحها في الحال عبر كومة من الزبالة. أما رفيقي في الغرفة فلم يكن يتدخل، إذا كان يشخر سعيدًا، ويسبح فوق أعمق

موجات الأحلام. فنهضت من فراشي مع زأرة من تلك الزأرات، حتى أقوم بواجب الاستقبال.

– انزع ملابسك – أعطت أوامرها.

– لماذا أنزع ملابسي؟

– لأزرقك حقنة.

– إذًا، في الذراع – تمتمت وجعلت نفسي مهتما برفع ردن "البيجاما". ولكن حذاقة السيدة فاندا التي أثبتت مهارتها، ما أن حقنتني حتى تركت لي الحرية لأن أصف الدمار الذي يصيبني – وجعلتني أتخلص من سترة؛ البيجاما"، بأمر منها أعطته في هذه الأثناء.

– تمدد هنا في الفراش، على بطنك، لأنني سأقوم بعمل.

– ماذا تريدين أن تفعلي يا سيدتي؟

– هذه مسألة تخصني، تمدد، هل لديك كؤوس فارغة. هنا؟

قررت أن أستجيب لعنايتها الأمومية الفعالة، وتمددت، فجمعت لديها كل الكؤوس الفارغة التي وجدتها، ربما أربعة، وبدأت تفعل في الكؤوس شيئًا لم أستطع أن أتبين ما هو، وهي تشعل أعواد كبريت، ثم تشعل بعض قطع القطن الصغيرة المبللة بالكحول.

– ماذا تفعل السيدة؟

كجواب عن سؤالي ألصقت كأسًا حارة على ظهري، فصدر عني صراخ سببه القلق أكثر مما هو الوجع.. حجامات!! أحسست بجلدي

ينشوي، وقد امتصه الفراغ، كما لو أن داخل الكأس قد امتص جسمي بكامله.

– هذه هي! تنفس عميقًا.

عندما بدأت بالاحتجاج، فإن كأسًا أخرى راحت ملتصقة في ظهري بمصة عنيفة كأنها قبلة حصان.

– تنفس! تنفس من جديد. ألست أفضل الآن؟

بعد قليل كان قد أصبح عالقًا في ظهري لا أقل من أربعة كؤوس، وكانت تبدو كأنها ستبقى هناك دائماً، وكما لو أنها أصبحت جزءًا مني، ولن يتم انتزاعها أبدًا.. حاولت، للإساءة ليس إلا، أن أنتزع أحد الكؤوس، تلك التي تستطيع يدي أن تدركها، فلم أتمكن، الغريب الآن أنه مع الألم في ظهري بالإضافة إلى الناتج عن الحجامات، فقد داخلتني موجة من الشعور بالارتياح بدا لي أنها تولدت من المازوشية النقية التي تعتريني.

– انزعي هذه الكؤوس من هنا، يا سيدة فاندا – قمت بردة فعل، وحاولت أن أرفع نفسي، وإذا الكؤوس إزاء هذا العلاج الغريب، ومن المؤسف أنه لم يكن هناك شهود. ولكن فجأة نبت الشاهد:

– رائع! غير اعتيادي! السيدة فاندا هي الأفضل! – وخرج رفيقي من أغطيته، في قفزة حماسية ناسيًا أنه لم يكن لا يرتدي إلا ملابسه الداخلية، بعدها لف نفسه بالشراشف وراح يمشي في الغرفة مهتاجًا مثل نيرون قبل أن يحرق روما: اعتقدت أنني كنت أحلم وأنا أسمع هذه المحادثة. حجامات

دونا فاندا هل جئت بمصاصي الدماء؟ السيدة فاندا بدت كأنها تحترق غيظًا:

– مزيدًا من الاحترام، هل فهمت؟ أنك تأخذني على مأخذ المشعوذة ولكنك سترى كيف سيصبح جيدًا مع العلاج – وعادت تنظر إليّ:

– هل أنت أحسن الآن، يا بني؟

لم يكن بإمكاني أن أكون أحسن مع تلك المعلقات الزجاجية المتشبثة في ظهرى، وعلى الأخص بعد أن أجبرتني هذه المرة أن أضع سترتي فوق الكؤوس وأن اتخذ نحوا فى الجلوس بدوت فيه كجمل ذي سنامين. أما رفيقي فكان منطلقًا في قهقهاته:

– أتركيه يخرج كما هو الآن الى الشارع ، يا سيدة فاندا . فانه سيحقق نجاحًا كبيرًا .

لم تتركني كما هو الآن السيدة فاندا. اقتلعت من ظهرى الكؤوس التى كانت تفرقع كأنها فتحات زجاجات شامبانيا. مررت بيدي على ظهري، فكما لو كنت أداعب جبلًا صخريا. وقالت لي أنها لم تنته بعد.

– الآن تعويذة اخترعتها أنا بنفسي، ولن أعلم السر لأحد.

راحت تعطي الأوامر بواسطة الهاتف، وعبر الممرات، وبعد قليل بدأ توافد الخدم في الفندق وكل واحد يأتي بشئ من هذا وشئ من ذاك – كحول – يود – وحتى فرشاة. والآن في قلب الكيمياء الطبية، انحنت كساحرة، وهى تهيئ بشكل غامض وصفتها التى صبغت بها ظهري بالفرشاة كما لو كانت تصبغ جدارًا.

الأكثر مدعاة للتعجب، مع كل ذلك، وهو أن مفعول البلسم بـــدأ يعطى نتيجة، وكما لو أن قوة سحرية قد مازجته، أحسست بأن الألم أصبح يغادر جسمي. وفي فترة قصيرة أصبحت جيدًا كليًا. أما الســـيدة فانـــدا، ودون أن تتعجب من النتيجة فقد استأذنت بالانصراف، بعد أن طلبـــت أجرها خمسين كروزيرو. ولكنها قبلت بمائة على أثر ترفع وأنفة كـــثيرين، علما بأنها تستحق الألف كروزيرو، الآن.

مازال الوقت مبكرا للعشاء

مازال الوقت مبكرًا للعشاء، سنتناول شيئًا ما – اقترح رب البيت.

الزوجان الضيفان انحنيا للدعوة، أما ربة البيت فقد ذهبت لتهيئة المشروب. بعد قليل سيخرجون للعشاء في أحد الملاهي. ذهب الرجلان إلى الشرفة بحجة أن الهواء في الخارج أكثر نعومة، وكل واحد منهما بيده كأس من الويسكي. وابتدآ فورًا، وبصوت منخفض، بتبادل النكات التي تعقبها الضحكات. أما المرأتان اللتان لم تكن تربطهما صداقة حميمة ولا تحبان تناول الكحول، فقد بقيتا في صالة الاستقبال تنظر الواحدة إلى الأخرى مكتفيتين بتكرار ذلك الحديث القديم عن الملبوسات والخادمات.

في وقت ما جاءت إحداهما إلى الشرفة:

– ألا تريان أن الوقت قد حان؟

وافق رب البيت في حين كان يملأ لكليهما جرعة إضافية:

– سنأخذ كأسًا صغيرة واحدة بعد.

كانت تلك المرة الوحيدة التي قوطع فيها الرجلان خلال ما تبقى من الليل. ومن الآن فصاعدًا لم يعد أحد يعلم أي موضوع اكتشفته المرأتان، ولكن الأكيد هو أنهما مكثتا في الداخل تتكلمان بصوت منخفض ترافقه ضحكات خفيفة في حين كان الزوجان يشربان.

أما رب البيت فإن ضميره لم يستيقظ، إذ كان مفترضًا أن يكونوا قد انطلقوا الآن، إلا عندما مر بالمرأتين ذاهبًا إلى الحمام. رأى زوجته تنازع النعاس في حين كانت الأخرى، بنغمة صوتها الخفيض وحركات يديها، تروي قصة حياتها الطويلة والمؤلمة.. ولدى رجوعه إلى الشرفة أطفأ معرفته للأمر بجرعة إضافية:

– ماذا كنت أقول..

قبل الصديق بطيبة خاطر التئام المحادثة من جديد، وابتدأ بقهقهة للكلام الذي كان الآخر يزمع أن يقوله.. الآخر قال عندئذ شيئًا، وأجاب هو مبادلًا إياه بجواب أكثر ظرافة، وضحك الاثنان، ما كانا يقولانه لا يعني شيئًا في الحقيقة وهما لم يكونا يقومان بشيء سوى ممارسة السلام المقدس في التعايش، وفي وقت ما سأل واحد الآخر ما إذا كان الوقت قد حان ليخرجوا إلى العشاء.

– بعد قليل. لقد وصلتما في الساعة الثامنة.

– في الثامنة والنصف.

– إذًا هيا؟! أصبحت الساعة العاشرة تقريبًا.

– وإن يكن؟ عشرة وقليل بعدها. لدينا متسع من الوقت.

هل أنت جائع؟

– أبدًا. وأنت؟

– أعترف بأن لدي رغبة في كأس إضافية.

– إذا سنتناول، كل واحد. كأسًا أخيرة ثم ننطلق.

أخذ كل واحد أربعة كؤوس إضافية، بعد أن حل كل واحد ربطة عنقه ونزع سترته. اكتشفا موضوعًا آخر يتحدثان فيه: اللسان ثقيل، ولكن التعابير كانت مفهومة بوضوح. فجأة، بعدها، بدأ الضيف يحس بحرارة في عنقه.. وعاد متعجبًا ينظر إلى الخارج، فرأي ضوءاً يولد في البحر.

– ما ذاك؟ هل بدأ البحر يحترق؟

أطلعه الآخر، مقهقهًا، أن ذلك كان ببساطة، الشمس:

– النجمة – الملكة، يا لعقلك!

– غير ممكن.

ارتعص في مكانه، وتبين عندها أنه كان ثملًا للغاية. وقف ترواح على قدميه ووقع أرضًا. جاء الآخر لمساعدته فوقع أيضًا.. وقررا تجاهل الوقوع بتكتم، يخترعان بعض الاعتذارات المتعلقة بفقدان التوازن وقانون الجاذبية.

– أرى أنه الوقت لتناول العشاء – اقترح أحدهما.

– أجل: هو الوقت قد حان. نستطيع أن نذهب. أين هما؟

في الصالة، انتبها إلى المرأتين يغالبهما النعاس، وكل واحدة مستلقية على أريكة.

– هل نذهب يا بشر؟ إن وقت العشاء قد حان.

خرجوا إلى الشارع مع ضوء النهار، وراحوا يسيرون على الشاطئ بخطوات ثقيلة، وكل رجل متعلق بذراع زوجته، تفتيشًا عن مكان يستطيعون تناول الطعام فيه.. أما المرأتان فلم تكونا تقولان شيئًا.

– هنالك محل يبقى مفتوحاً طيلة الليل.

ذهبوا إلى ذلك المحل وطلبوا ما كان موجودًا فيه: "فيليه" مع بطاطا مقلية لم تقل المرأتان شيئًا.

الخادم أصيب بالتعجب لوجود نساء أنيقات إلى هذا الحد، في تلك السكرة، يقمن بحراسة ثملين نال منهما السكر أشده.

– أنا سآخذ كأس جعة صغيرة – قال أحد الرجلين.

كانت تلك كلماته الأخيرة. وأحس برموش عينيه تقع في البؤبؤين، وانحنى الرأس فوق الصدر.. ثم استيقظ على لقطه من عنقه:

– ألا تريد أن تأكل؟

فتح عينيه ورأى زوجته، مشتعلة، ويدها ممدودة، تشير إلى الصحن في مقابلة الصديق النائم ويضع مرفقيه على الطاولة، ثم يريح وجهه بالنظر القريب إلى قطعة اللحم. كانت المرأتان تنتظران متماسكتين، محتارتين، شاحبتين كقطعتي إسفنج ناشفتين:

– ماذا حدث؟

لا شيء – قالت واحدة منهما، أخيرًا عندما نادت الخادم ودفعت الحساب – لم يحدث شيء، ولكن، ستحدث أشياء.

حسكة سمك

فجأة ألقت السيدة كارولينا الشوكة في الصحن وأخرجت من حنجرتها شهقة. هرع إليها الجميع تاركين مقاعدهم إلى طاولة الطعام: الابنة، الصهر، والأحفاد:

– ماذا في الأمر، ماما؟

– سيدة كارولينا، هل تشعرين بشيء؟

– تكلمي معنا، "بيبي".

العجوز، كانت تشير إلى بلعومها الذي تخرج منه شهقات اختناقية، وفمها مفتوح، وعيناها جاحظتان إلى أعلى.

– حسكة – تمكنت العجوز أن تفلت كلمة في النهاية: – إن في بلعومي حسكة عالقة هنا.

وكانت تشير إلى حنجرتها بإصبعها اليابس.

– كلي لقمة خبز.

– تنفسي عميقًا، بيبي.

– عن إذنكم – وهنا قام أحد أزواج الحفيدات الذي كان طبيبًا حديث التخرج، وفتح لنفسه طريقًا: – دعيني أر. افتحي فمك جيدًا يا سيدة كارولينا.

فأرجعت السيدة كارولينا رأسها إلى الوراء، فتحت فمها جيدًا، وإذا بأسنانها الاصطناعية الفوقية تقع من مكانها، وبينما هو محتار من أمره، فإن الطبيب الشاب تناولها بأصابع مرهفة ووضعها مبتسمًا فوق شرشف الطاولة:

– أجل، هكذا. والآن أديري وجهك إلى الضوء لا أرى شيئًا.. لقد خرجت الحسكة من مكانها، ولا يوجد شيء هنا. إن البلعوم قد أصيب قليلًا.. لهذا السبب.. اشربي قليلًا من الماء – يا سيدتي كارولينا.

تنفس الجميع الصعداء، وعاد كل واحد إلى مكانه. السيدة كارولينا أطلقت على الطبيب الشاب نظرة كأنها تقول: "مرت بيضة من هنا" وأكملت زئيرها. وإذا لم يعد هناك من يستطيع أن يهرع لنجدتها فقد انتهت إلى أن تنسحب إلى غرفتها بعد أن لعنت كل العائلة. إحدى الحفيدات، الوديعات ذهبت بالأسنان الاصطناعية التي نستها السيدة كارولينا على الطاولة، لتعيدها إليها.

– إن في بلعومي حكة – كانت تشتكي بصوت يبدو أكثر انخفاضًا في كل مرة.

– لقد خرجت الحسكة، ماما.. والمسألة هكذا، فالواحد يظل معتقدًا بأنها لا تزال في مكانها، ولابد أن يكون البلعوم قد جرح.

– "لا يعتقد ولا من يعتقدون".. الحسكة لا تزال هنا، في الداخل إنها تخنقني.. ناد على الطبيب، يا ابنتي.

– جاء الشاب الطبيب مجددًا، ولكن العجوز أبعدته هنا بحركة – من يدها:

– هذا الطبيب، لا! أريد طبيبًا حقيقيًا!

العائلة، مجتمعة من جديد، كانت تبدي الارتعاب، بينما السيدة كارولينا، هادرة، كانت تردد أنها ستموت مختنقة. ركضت إحدى البنات لتأتي بكوب من الماء بينما الأخرى كانت تقوم بالتهوئة للعجوز بواسطة صحيفة. وذهب رب البيت يقرع على باب جاره الدكتور فونتورا، الذي كان طبيبًا كما يشار إلى اسمه:

– يعذرني السيد لإزعاجي إياه ولكن حماتي، أصرت لقد دخلت حسكة في بلعومها، ولم يعد هناك شيء، ولكن تصر على أن هناك حسكة لأن هناك حسكة فعلًا.

الدكتور فونتورا الذي كان في الحقيقة طبيب أسنان، ركض معه بعض المستلزمات الطبية للأسنان، وملقط.

– افتحي فمك جيدًا يا سيدتي – أعطى الأوامر، بجدية، بينما يحيد لسان العجوز بواسطة معلقة، ووضع أنفه فمها:– أجل. هكذا. "هنهن" .. لا أرى شيئًا. هل لدى أحدكم قنديل كهربائي؟

جاء أحد الفتيان بالقنديل الكهربائي الذي أشعله طبيب الأسنان وسلطه إلى مغارة زبونته الجديدة بمعاينة عامة.

– هذه هي.. إنها تعاني من أثر الحسكة هنا، قرب العدة لم يعد هناك شيء، لقد خرجت الحسكة. إن ما تحتاج إليه، في رأيي، هو وجبه أسنان جديدة.

اشمأزت المرأة العجوز، ودفعته عنها وكادت أن تعض يده والجميع كانوا يتنفسون الصعداء.

– ألم أقل ذلك؟ – أكد رب البيت وهو يرافق جارة إلى الباب معبرًا عن الشكر الجزيل:– إن العجوز عصبية بلا سبب، يعذرني السيد على الإزعاج..

أخذت السيدة كارولينا تلعن كل سلالتها، وصوتها في كل مرة أشد بحة:

– زمرة من المعقوقين! إني أموت هنا اختناقًا وهم يقولون أن لا شيء في بلعومي.

وقرروا إعطاءها مسكنًا واعتبار الموضوع منتهيًا.

ولكن الموضوع لم ينته. فالعجوز لم يغمض لها جفن طيلة الليل وأمضت كل اليوم التالي تزأر بصوت غير متقطع:

– إلهي.. إلهي.. يا إلهي! إني أموت ولا أحد يكترث بي!

كانت الابنة تشد على يديها متكدرة:

– لم تشأ أن تتغدى، وهي الآن لا تريد أن تتعشى.. وهكذا فإنها ستموت حقًا.

– إن حماتي مصابة بنوبة هستيرية – كان يشرح رب البيت لصديق قديم جاء لزيارته في اليوم الثالث.. إنها هكذا منذ يوم الأربعاء، ولم تعد تتكلم مع أحد.

وقرر الصديق أن يتجسس عليها عن قرب. وما كادت تراه حـــتى مدت السيدة كارولينا يدها إليه، تقذف وجهه بصوت مبحوح، يكـــاد لا يفهم:

- حبًا بالله، انقذني! إنك الوحيد الذي يزال يصدقني.

وإذا تأثر من الأمر، فإن الصديق قرر أن يأخذها معه إلى الإســـعاف الفوري:

- حتى وإن لم تكن الحسكة قد بقيت في البلعوم، فإن أخذها إلى الإسعاف الفوري سيكون له تأثير نفسي – شرح الصديق للآخرين.

لفوا العجوز بمعطف كبير، وذهبت مـــع الصـــديق في الســـيارة إلى الإسعاف الفوري، ولم تكد تصل حتى مددوها على طاولة، بنجوها، وراح الطبيب المناوب بواسطة ملقط يعالج بلعومها وأخرج منـــه – لا الحســـكة وحسب بل عظمة كاملة من العمود الفقري للسمكة وفيها الحسكة مـــن كل النواحي. كأنها الشص.

- كادت تموت اختناقًا – قال الطبيب المناوب – ولم يكن ممكنًا أن تعيش حتى يوم غد.

اليوم، عندما تريد السيدة كارولينا أن تجعل بقية العائلة تصغي رأيها في موضوع ما، فإن أول ما تفعله هو عرض قطعة العمود الفقري للسمكة، والتي تحملها معها كزينة تتباهى بها.

وبدأت المعركة

تمامًا، في اللحظة التي بدأ فيها منتخبنا في كرة القدم مباراته الأولى في أوروبا، كانت إدارة المصرف قد عقدت اجتماعًا لا يستطيع هو أن يتغيب عنه. ولكنه لم يقع في الحيرة: فقد تدبر الأمر بأن استعار مذياعًا صغيرًا ومعه سماعة وضعها في أذنه موهمًا بأنه مهتم بالمناقشات، بينما وضع المذياع الصغير في جيبه وشغله استعدادًا للاجتماع.

– ما هذا؟ تعجب أحد المديرين:– هل أصبت بالصمم؟

جلس جيدًا إلى الطاولة: وكان الاجتماع قد ابتدأ وكذلك مباراة كرة القدم.. "ديدي إلى مازولا"، "مازولا إلى بيبي"، "بيبي أرجعها إلى مازولا".. اقترح أحد المديرين رفع نسبة القرض الزراعي. "أفلتت من غارينشا".. نحن متأكدون أن زملاءنا سيوافقون على التدابير التي ستحقق فورًا تطبيع العمليات.

– موافق.

– موافق.

– "منع"!

– كيف؟

لا شيء.. لا.. موافق.

المنتجون لا يستطيعون أن يحصلوا إلا على قـــرض يســـاوي قيمـــة السماح مضافًا إلى مجموع الدين. "ضربة مباشرة من خارج منطقة المرمى". إن القرض التمويلي لما هو مشار إليه في القانون يشكل خطرًا على مصالح المواطنين البرازيليين والتي بدافع عنا "جيلمار" ويدفع الدين في العام الذي يلي عام الحصاد. "دفاع رائع من جليمار".

– بشرط أن تكون الكفالة الموضوعة وفقًا للمادة "الرقم ٤".

– "سدد فورًا يا ابن الله".

"تلقاها ديدي من بيليني وهو ينظم هجمة". إن العمال المســـتفيدين ومهما تكن قيمة الدين المترتب..

– "الآن. هيا سدد".

– عفوا؟

– عفوا، ماذا؟

– لم أسمع تعليقك.

– آه.. العفو..: تستطيع أن تستمر. خرجت الكرة إلى الخارج؟

قيمة الدين المرتب؟

– هل تسمعني جيدًا، هناك؟

– بشكل كامل. لماذا؟

– هذا بفضل السماعة التي في أذنك.. جيد، سنتابع.

واستمر الاجتماع دون أي جديد إلى أن استلم غارينشا الكرة من جديد. مازولا يستعد للتسديد.. ضعضعة في الدفاع الإيطالي.

– هدف للبرازيل! – زعق، هو وقد نسي نفسه.

استدار المديرون الآخرون، متعجبين، فراح هو يعتذر كما استطاع، واستوى جالسًا في الكرسي الكبير من جديد واستمر يشارك في الاجتماع الذي بدأت تسيطر عليه غرابة عامة: إن العمال، إزاء التدابير الاحترازية التي تنظم الدين المشار إليه في المادة السابقة.. راح يتململ في الكرسي، وذراعه ممدودة، وشكله متوتر.

– ماذا يحدث، في النهاية؟

– انتظروا، انتظروا – طلب منهم ذلك وعيناه جاحظتان، ثابتتان كعيني صياد تركزان على الطريدة، وقد اجتذبت جلسته، كالتمثال، فضولية الآخرين "بيبى لا يزال متقدمًا، تجاوز المدافعين في خط الوسط، دخل إلى منطقة الجزاء، وسدد إلى الهدف..".

– هدف آخر – قفز عن كرسيه. – الآن لم يعد من خطر: نستطيع أن نتابع.

بدأت التعليقات تدور حول طاولة الاجتماع. ما هذا المذياع بحق المذياع بحق الشيطان؟ دعني أرى، يا للشيء المثير للاهتمام!! صغير إلى هذا الحد. لم يعودوا يعرفون شيئًا يخترعونه.. شغله هنا لنرى جميعًا. كم سعره؟ هدف لمن؟

– سجله بيبي. هدف رائع.

– أعطني المذياع، أنا أيضًا أريد أن أسمع.

– ضعه في وسط الطاولة، والإدارة المصرفية، بالإجماع، وإزاء الوضع الحالي الذي يتعلق به مصيرنا كوطنيين، أعطيت الأولوية للمباراة. مازولا عملاق داخل الملعب، وديدي شبح حقيقي.

– فقط أنظر إلى هذه التمريرة.

– إنه بارع في كل شيء.

في النهاية، فإن المديرين وقد نسوا ما تنص عليه المادة ٢٦٩٧، والمتعلقة بمنح القرض الزراعي بالنسبة إلى حصيلة إنتاج العام السابق، راحوا يهنئون بعضهم البعض: لقد ربحنا بأربعة أهداف مقابل لا شيء.

– جليمار كان للأفضل. سادتي.

– هل رأيت ذلك الدفاع؟

– إن قراءة التقرير، إزاء الظروف الحالية يجب أن تبقى، في رأيي، للاجتماع ووافق الجميع على الاقتراح، واعتبروا مواضيع تلك الجلسة منتهية وخرجوا جميعًا لتناول كأس ويسكي احتفالًا بالفوز.

قرود تعضني

أحد سكان مدينة في داخل منطقة ميناس أعلمني بالأمر: قال لي أنـــه منذ زمن ما أرسل عالم محلي برقية إلى عالم آخر، صديق له، ومقيم في منطقة ماناوس:

"أرجو أن ترسل لي بالبريد قردًا أو قـــردين "LOU 2 Macavos" كان يحتاج إلى ذلك ليجري بعض التجارب على قرد ينـــدر وجـــوده في منطقة ميناس.. وفي يوم من الأيام، وإذا كان قد نســـي الطلـــب، جـــاءه الجواب:

– "لقد أرسلت لك الطلبية الأولى وقوامها ٦٠٠ قرد، والطلبيـــة الثانيـــة ستصل في القريب العاجل".

لم يفهم جيدًا: لعل الصديق تدبر له قردًا واحـــدًا بقيمـــة ســـتمائة كروزيرو؟ ظل ينتظر ولم يفهم الأمر جيداً إلا عندما جاء مســـئول محطـــة القطار يعلمه:

– بروفسور، وصلت طلبيتك، وهنا الإيصال لتوقعه. احتاج الأمر إلى قطار خاص لنقلها.

وتابع:

– قطيع من القرود لا نهاية له.

وقف البروفيسور واجمًا:

لقد أخطأ عامل البرقيات وهو يبرق "قــردًا أو قــردان" ١ ou 2 Macacos، فأبرق ألفا وقردان ١٠٠٢Macacos ! وفي المحطة، لتبــدأ العملية يوجد الآن ستمائة قرد ككمية أولى يتم تسليمها. والقرود محجوزة في الأقفاص وتنتظر التفريغ.. وأبرق في الحال إلى صديقه:

– حبًا بالسيدة العذراء أوقف شحن الكمية المتبقية.

ذهب إلى المحطة، ولكن السكان المحليين، مندهشين للحدث، كــانوا قد تجمعوا هناك بفضولية، وحماس، للاستفهام:

– ماذا يزمع البروفسور على أن يفعل في هذه الكمية من القرود؟

أما القرود الفاقدة صبرها والجائعة فكانت تنتظر مصيرها موضوعة في الأقفاص عند المحطة، وهي تؤنس الجميع بحركاتها. لم يمتلــك البروفســور الشجاعة ليقترب منها: فهرب راكضًا وعاد يختبئ في بيته. عند المساء، جاء وكيل المحطة ليسحبه من عزلته:

– بروفسور، حبًا بالله تعال وجد حلًا لهذه المشكلة.

طلب البروفسور بعض الوقت ليفكر. بينما الرجل الآخر راح يشد على رأسه مرتبكًا:

– بروفسور، كلنا نكن لك التقدير والاحترام، ولكن عليــك أن تكــون صبورًا: فإذا لم تجد حلًا للمسألة فإني سأرسل القرود كلها إلى بيتك.

– إلى بيتي؟ هل جننت؟

وتمدد الفراغ طيلة اليوم التالي. في المدينة لم يعد أحد يتكلم عن شيء آخر وبدأت المقولات الروحية تشيع:

قرود تعضني!

يا قرد، أنظر إلى ذيلك.

عند الليل، وإذ أن البروفسور لم يتدخل، فإن مـــدير المحطـــة دعـــا الأشخاص ذوي الشأن في المدينة: رئـــيس البلديـــة، ومـــدير الشـــرطة، والقاضي.

– هل أعيد القرود على حساب رئاسة البلدية؟

– ليس في البلدية أموال لتنفق على القرود.

– وكذلك البروفسور، ليس لدية مثل هذا المال.

– إن القرود جائعة جدًا، ولا أعلم ماذا أفعل.

– هل أقتلها؟ ولكن قتلها سيكون مذبحة!

– لا شيء من هذا – أشار مدير الشرطة بإصبعه:– يقولـــون أن القـــرد المشوي طبق لذيذ.

في نهاية اليوم التالي، فإن مسئول المحطة، وبمبادرة شخصية منـــه، إذ ليس لديه البديل عن ذلك، نادى على النجدة الأخيرة – النجدة المأسوية، والنجدة للوطن الذي هو في خطر: إطلاق حرية القرود. وكما فعل سكان ليدي عندما حاصر الأسبان أرضهم فأطلقوا سدود بحر الشـــمال لإنقـــاذ شرف هولندا، هكذا أطلق هو حرية القرود.. وتحررت القـــرود، وبحـــر الشمال الفرح والمتهجم، طاف على الأرض قرودًا انطلقت كما تنطلـــق ثيران المصارعة من إسطبلاتها حين تفتح لها الأبـــواب. القـــرود المتاحـــة

والمتجهمة غزت المدينة في الحال وزرعت الفوضى. في تلك الليلة لم يشعر أحد بالراحة. عندما كانت الصبية تستعد للنوم فإن قردًا مد ذراعه من النافذة وشد بقميص نومها. أما في الدكان، فإن زبائن البيرة التقليديين وجدوا أن القرود قد احتلت المكان. نافذة تذاكر الدخول إلى السينما، أصيبت بالهلع عندما امتدت ذراع أحد القرود المشعرة عبر القضبان الحديدية لتحصل على بطاقة دخول والويل لمن يقدم على أكل موزه بهدوء! قبل أن يرفعها إلى فمه فإن ذراع قرد لا يعرف من أين خرجت كانت تمتد لتنزعها. لدى الحلاق، كانت هناك أوقات لم يعد فيها مجال لزبون واحد يجلس فوق كرسي، لأن القرود قد شغلت الكراسي كلها.. وكان هنالك القرد الشهير الذي دخل إلى المصبغة فلم تبق قطعة ملابس واحدة خارج مطاله.. هكذا انقضى الليل بالرعب.. بعض الصيادين غير المرتقبين وضعوا أنفسهم في خدمة القضاء على القطيع.

وأكثر من غير مكترث جازف بتلقي رصاصة نتيجة عدم اكتراثه إذا لم يتم التمييز بينه وبين القرد في ظلام الليل.

في اليوم التالي استمر اللغط. لم يتم التدريس في المدرسة الحكومية لأن القرود كانت قد وصلت إلى هناك قبل التلاميذ. وكان جرس الكنيسة يقرع قرعات الحداد منذ الصباح، إذ كانت القرود قد تسلقت إليه، وقد فعل الكاهن خيرًا عندما أجل القداس لأن قردًا كان قد اختبأ في "الأفخارستيا".

بعد ذلك، مع مرور الأيام والقرود، تمت تفرقتها. بعضها مات جوعًا أو مصطادًا بشكل لا رحمة فيه. وبعضها هرب إلى الغابة، وبعضها انتهى

لأن يكون طعام عشاء فاخر على طاولات العائلات الفقيرة، وقرد هنا أو هناك كان يظهر بين الفينة والأخرى من مخبأه، مرتعبًا، وهو يحمـــل بيرقًـــا أبيض طالبًا من الفتيان، أن يكفوا عن اضطهاده برميه الحجـــارة. وظـــل حضور القرود المزعج يخيم لزمن طويل على جو المدينة. أما البروفســـور لم يستطع أن يستخدم ولو قردًا واحدًا لإجراء اختباراته العلمية. كـــان قـــد وضع مريضًا وقرر ألا يضع قدميه في الشارع بعد اليوم، مع العلم، ولوقت طويل، ظل الكثيرون من أصدقائه يلحون على زيارته عبر النافذة.

في يوم، والمدينة قد غدت في سلام، فإن البروفسور تلقى برقية أخرى من صديقة في ماناس:

"تم إرسال قرود الطلبية الثانية، وعددها ستمائة".

لم يشك في صحة البرقية وإذ لا يزال مريضًا، خرج مـــن مترلـــه في الحال ومباشرة إلى المحطة، وتخلى عن المدينة إلى الأبد، ولم يعد أحد يســـمع عنه شيئًا.

مراسل الرائد

جاء مراسل الرائد يعلمه بأن العشاء قد أصبح جاهزًا على الطاولة. جمع قدميه بقوة، وضرب يمناه بالأرض مؤدياً التحية وقال:

– ماريشال، الإعاشة جاهزة.

الماريشال، هو نفسه، الرائد، رفع عينيه متجهاً ولم يتفوه بكلمة. اتجه إلى الطاولة، مفكرًا، وأثناء العشاء سنحت له الفرصة ليسر في أذن زوجته:

– أعتقد أن جوزيه لم يعد طبيعيًا.

في الحقيقة، فجوزيه دوس سانتوس، العريف المخلص والخادم الأمين للرائد كان قد أمضى في الخدمة عشر عامًا فأصيب بالجنون، وفي تلك الليلة بالذات، ومن غرفته فوق المرآب راح يعطي الأوامر لفصيلته:

– تأهب! إلى الأمام! نار!

وفتح النار برشاشة الوهمي، عبر النافذة، على خم جاره، بينما الدجاجات البياضة تنام لا تريد شيئًا مع الحرب. قفز الرائد من فراشه قلقًا واتصل هاتفيًا بطبيب صديق له. وفي فجر ذلك اليوم أخذوا العريف السابق إلى مستشفى للأمراض العقلية.

– بسبب جندي واحد لا تنتهي الحرب – كان يقول وهو يدخل واثقًا أبواب ميدان المعركة الجديدة. وبينما يستأذن سيده، أدى تحية رسمية وقال:

– لا تنس أقدم وأوفى خادم لك يا ماريشال.

تأثر الرائد وقرر مساعدة الرجل بكل ما يستطيع. ففي نهاية الأمر كان الرجل في الحقيقة أقدم وأوفى خادم. أوصى به إلى مدير المستشفى وذهب وهو يفكر أين يمكن أن يجد شخصًا آخر بهذا الوفاء.

من حين لآخر، كان الرائد يذهب لزيارته بالفواكه، ويسأل الأطباء عن حالته.

– إنه يتحسن تحسنًا طفيفًا – كانوا يقولون له.

لم يكن يتحسن. في اليوم الأول في المستشفى التحق برفاقه الآخرين في الملعب وشارك في حادثة جاءت لتزيد من اختلاله العقلي: حدث أن نقيبًا في المدفعية كان هناك وقد فقد عقله خلال مجازفة عسكرية، وكانت تسلية ذلك النقيب تقوم على وضع الآخرين اصطفافًا وقضاء كل بعد الظهر وهو يعطي الأوامر نفسها:

– إلى اليسار، در! متراوحًا، سر.

الآخرون، لأنهم لا يريدون أن يخلقوا لأنفسهم مشاكل مع الجيش، وحبًا بالوطن، أو لأنهم كانوا يرون في ذلك تمرينًا جيدًا، أو لكونهم مجانين، فكانوا يطيعون بتواضع. ولم تكن إدارة المستشفى تتدخل لأن مناورات النقيب كانت قد أوجدت نظامية أثناء نزهات المرضى. وعندما كان المدير يظهر هناك، كان النقيب يزعق بقوة:

– انظرررررر.. إلى اليمين!

وكان المدير، متجاوبًا، يشاهد الاستعراض.

ولم تعد تفيد الانحناءات الاستلطافية مع العريف السابق جوزيه دوس سانتوس الذي وصل إلى هناك ووقف يتفرج.

– أنت هناك، أدخل إلى الصف! وانتظم! أمر النقيب.

وبدلًا من أن يطيع، تقدم من النقيب ولكمه لكمة قوية على وجهه فانقلب النقيب أرضًا، ثم نهض، وأدى التحية:

– في خدمتك سيدي العقيد.

وهكذا أصبح للمجانين قائد جديد. دخل النقيب نفسه في الصف بينما العقيد جوزيه دوس سانتوس أصبح يأمر ويوجه تطورات الوحدة.

وها هو حامي الرجل المسكين يتعجب لدى معرفته، عندما ذهب لزيارته، أنه قد رقي من عريف إلى عقيد:

– إن جنودي مخلصون، يا عزيزي – كان عقيد المجانين يقول بحميمية طبيعية تسود العلاقة بين ضباط الرتب المتساوية.

وفي يوم تلقى الرائد مكالمة هاتفية من مستشفى المجانين: لقد مات جوزيه دوس سانتوس. كان الأخير قد أقلع عن زيارته وتركه لقدره. وهنا أحس بوخز الضمير (كان الرائد روحانيًا) وانتهى بقرار إجراء مراسيم دفن لائقة لخادمة تلاءم الأعراف العسكرية التي كان يتوقعها الرجل المسكين. اتخذ التدابير اللازمة مع إحدى شركات الدفن وتوجه إلى المستشفى.

– لقد جئت بالنعش فأين الرجل؟

عند ذاك تحقق من الالتباس: إن جوزيه دوس سانتوس الذي مات هو مجنون بائس لم يترق إلى أكثر من جندي بسيط في مناورات العقيد جوزيه دوس سانتوس الذي لا يزال هناك يقود الفصيلة.

– لا يمكن – أجاب الرائد متأففًا – يعني أن الرجل لم يمت بعد؟ كيف يمكن لأمر كهذا أن يحدث؟

– إنه مستشفى لأمراض عقلية – ابتسم له المدير. كان يوجد اثنان باسم جوزيه دوس سانتوس وواحد منهما قد مات، أتأسف لأن الذي مات ليس خاصتك.

– والآن؟ لقد اتخذت التدابير اللازمة، وأمرت بالدفن.

– ادفن الآخر – اقترح المدير.

– أدفن الآخر؟ وهز الرائد رأسه غير معتمد:– ولكن إذا كنت لا أعرف الآخر؟!

– أن أقتل الرجل فلا أستطيع – أجاب المدير الذي بدأ يتأفف هو الآخر، أخذ الرائد يسير من جانب إلى آخر.

– كيف هو الآن؟ – سأل في لحظة ما.

– من هو؟

– جوزيه دوس سانتوس.

– مات.

– الآخر!

– آه.. ذاك.. يتحسن بشكل طفيف – يتوقع ترقيته إلى ماريشال.

كأن داخل الرائد ميدان معركة: من جهة رغبته الملحة في وضع حد فوري لكل ما حدث، ومن جهة أخرى عبارة "الخادم الأقدم والأوفى" التي تثقل على ضميره.

– تريد أن تقول أنه مات أليس كذلك؟

– من مات هو الآخر – أوضح المدير بصبر.

– أعرف! الآخر – تمتم الرائد. ثم استطرد:– هل تريد أن تعرف شـــيئاً؟ سندفنه.

ثم انصرف، وخيم السلام على ضميره. لقد انتـــهت الحـــرب: إن الرائد قد قتل أرنبين بطلقة واحدة.

جلسة تنويم مغناطيسي

فتحت لنا ربة البيت الباب، بهدوء، وطلبت منا المحافظة على الصمت وهي تضع إصبعًا على فمها، مومئة إلينا بالدخول. دخلنا على رؤوس أصابع أرجلنا، وقد أصبحنا نصف منومين مغناطيسيًا. كان المنوم المغناطيسي ينحني فوق إحدى الفتيات وهي متمددة على الأريكة الطبية، يحاول أن ينومها. في الناحية الأخرى من العيادة خمس أو ست ضحايا تنتظر كل واحدة منها دورها، بعضها جدي جدًا، والبعض الآخر يحاول أن يمنع نفسه عن الانفجار بالضحك.. أما الشابة المتمددة فلم تكن قد نامت وراحت تتطلع إلى ساعة يد المنوم المغناطيسي.

"سوف تنامين. أهدابك تزداد ثقلًا. كل شيء سيختفي". كان المنوم المغناطيسي يصر بصوت هادئ رخيم، ولكنه انتهى إلى إعطاء الأوامر: "أغمضي عينيك". أغمضت الشابة عينيها.. ثم أشار إلينا بيده لنتقدم منه. "ارفعي ذراعك"، رفعت الشابة ذراعها "الآن لا تستطيعين أن تخفضي ذراعك". ثم عاد يوجه إلينا الكلام: "هل رأيتم؟ إنها تنام. إنها لا تستطيع أن تخفض ذراعها إذا حاولت فستجد مقاومة تمنعها عن ذلك". وإذ أنها كانت تسمع الكلام فإن الشابة الجميلة المتمددة أخفضت ذراعها في الحال ولم تجد أية مقاومة.

"جيد – تابع الرجل: "أحياناً يبقى الشخص، هكذا، متمردًا، إنه يطيع مباشرة ولكنه يقوم بعكس ما يطلب إليه". اقترب ثانية من الكرسي:

"الآن" – وشوش في أذنها – "انتبهي جيدًا، إنك تريدين أن تتوقفي عن قضم أظافرك، أليس كذلك؟ إذا عندما تستيقظين فإنك لن تقضمي أظافرك أبدًا. يجب أن يتكون لديك الوعي أن قضم الأظافر عادة بشعة للغاية وغير مرغوبة. انتبهي. عندما أعد إلى الثلاثة فستسقطين".

وما كاد يقول "واحد" حتى قفزت الشابة عن الكرسي مرتاحة وراضية عن نفسها. "هل نمت حقاً" سألناها مذهولين. "كيف تريدونني أن أنام وهو يوشوش طيلة الوقت في أذني؟ – ولكنه أمر سيء أن تعصى الرجل بهذه الطريقة وتخفض ذراعها. حركت الفتاة كتفيها: "كل هذه الأمور من أجل أن يقول لي "لا تقضمي أظافرك، إنها مسألة كريهة حقًا".. ثم انصرفت وهي تقضم أظافرها.

وعدنا نصغي إلى المنوم المغناطيسي الذي كان قد دعانا إليه:

– هل يريد أحدكم أن يجرب؟ إني أجعله ينام خلال برهة واحدة. يكفي أن يجلس هنا فوق هذا الكرسي. هل يريد أحد أن يقلع عن التدخين، عن شرب الكحول. عن قضم الأظافر، عن أية عادة بشعة، عن أية رذيلة؟

مكثنا واقفين واجمين كأنه اعتداء: إنه لأمر واضح، إذ ليس بيننا من عنده رذائل أو عادات سيئة، فكلنا أبناء عائلة كريمة.. ولكن الجميع بدأوا يحسون برغبة في النوم، وقررت فتاة هناك، لعلها أجمل الموجودات أن ترشح نفسها:

– ولكني أنام فقط.. "ها" لا أريد أن أجيب عن شيء، أو أخبر أسرارًا، فهذه الأمور لا أقبلها أبداً.

وطمأنها الرجل:

– إن التنويم المغناطيسي ليس لهذه الأمور، وليس فيه ما يتناقض مع إرادة الشخص وحياته الشخصية.. إن العقل الباطني يقوم بردة فعل. هل تعرفين كيف بأن يستيقظ الشخص.

– هكذا.. أرخي جسدك جيدًا .. افترضي أنك موجودة في غيمة أغمضي عينيك.. إنك الآن حرة طليقة في الفضاء.

قامت الفتاة تطير في الغرفة.. واحد طلب سيجارة، والآخر بدأ يروي نكتة بصوت منخفض.. أما خطيب الفتاة، فكان الوحيد الذي، عدا كونه فنانًا، لم يكن يرفع عينيه عنها: "إذا سبب هذا المنوم المغناطيسي أي سوء لها فسيكون له شغل معي"، وبدأت ربة البيت تنهرنا بهدوء، إذ لم نكن نفعل شيئًا سوى المحادثة، بينما كان واحد منا يقترح أن ننوم المنوم المغناطيسي مغناطيسيًا.

– "إنك ستنامين" – تابع المنوم المغناطيسي لا يكل ولا يمل:

– "إنك تنامين.. تنامين.. ها قد نمت" وتوجه إلينا: "الآن سأقوم بتجربة توارد الخواطر".. أخذ يد الفتاة بين يديه فتقدم خطيب الفتاة خطوة إلى الأمام.

– "إنك ستجيبين بالرقم الذي أفكر فيه" – وأرانا ثلاثة أصابع – الآن، ركزي جيدًا. ما هو الرقم"؟

– تسعة – أجابت الفتاة على الفور.

– تقريبًا – قال المنوم المغناطيسي.

– لماذا تقريبًا؟ – سأل أحد الموجودين.

– "أيا باه" ثلاث مرات تساوى تسعة. هكذا هو الأمر.

بعد ذلك أعطى المنوم المغناطيسي الأمر، بعينيه، للمحافظة على الهدوء وهمس:

– يمكن أن تستيقظ على الضجيج.. فتحت الفتاة عينا ألقتها علينا ثم أغمضتها "أحد عشر". لا.. حاولي من جديد. ثلاثة عشر؟! تسعون؟! ألف؟! وكانت تتابع وهو يطلب منها أن تحاول من جديد.

أحنى المنوم المغناطيسي رأسه. "سأفكر في رقم جديد"، أصر على ذلك وهو يرينا أصابع يديه العشرة: "ركزي جيدًا. ما هو الرقم؟ – ثلاثة – أجابت الفتاة. فابتسم المنوم المغناطيسي راضيًا عن نفسه: "الثلاثة كانت سابقًا. جاءت متأخرة قليلاً. ولكن لا أهمية لذلك. عندما أعد إلى الثلاثة".. لم تنتظر الفتاة فنهضت.. تعجب المنوم المغناطيسي وقال لنا "إنها حساسة جدًا وتقوم بردة فعل سريعة".

في يوم من الأيام تم تنويم صديقة من صديقاتي مغناطيسيًا فعزفت وهي نائمة على الكمان، وقادت طائرة، ومصت مشمشة.

– أجل أنا أفعل كل هذه الأمور – قفز الرجل من مكانه مفتشًا عن ضحية ما ولكن الجميع رفضوا:

فواحد:

– لقد استيقظت باكرًا اليوم، وأخاف إذا نمت الآن ألا أستيقظ قبل يـــوم غد وآخر:

– شكرًا، لا أحب المشمش.

ولاحظت ربة البيت أن المسألة هي مسألة تحد؛ فوضعت نفســـها في التصرف:

– دعينا نذهب إلى الغرفة الأخرى، فهنا لا نستطيع أن نمكث بهدوء.

ذهبا إلى الغرفة الأخرى. بعد دقائق عاد متأبطًا ذراع المرأة:

– ألم أقل لكم؟ إنها تنام.

– انتبه حتى لا أتعثر بكرسي ما – طلبت وعيناها مغمضتان.

– لا تقولي شيئًا – أمرها المنوم المغناطيسي.

– إنك الآن نائمة. والآن خذي. هذا كمان. اعزفي على الكمان.

– أنا؟ لم أعزف في حياتي على الكمان. أية مسخرة هي هذه؟

– إنها نصف متمردة – اعترف المنوم المغناطيسي، وهو يوجه إلينا الكلام. توجه من جديد إلى المريضة:– غير مهم. إذًا مصي مشمشة. أُنظري إلى هنا هذه حبة مشمش، ألا تحبين المشمش؟

– أعبده. ولكن ليس من مشمش هنا.

– مصي واحدة – ألح المنوم المغناطيسي، نصف مرتبك:– علـــى الأقـــل واحدة. افعلي كما لو كان هناك مشمش. مصي المشمشة وابصقي النواة.

– ليس لدي رغبة في ذلك – أجابت المرأة وفتحت عينيها. أما المنوم المغناطيسي فهز كتفيه:

– إنها لا تتعاون.

فجأة اكتشفت أن حضوري هناك كان يزعج التجارب. عندئذ اعتذرت من الجميع، وصفقت بجناحي، وحلقت خارجًا من النافذة.

انتحار أم جريمة

في إحدى الليالي دخل رجل وامرأة إلى مشرب في سان باولو. جلسا وطلبا كأسين من "المارتيني" وبينما يضع الخادم الكأسين أمامهما اتجهت المرأة إلى الهاتف، وأشعل الرجل سيجارة. عندما عادت المرأة إلى الطاولة لم يكن الرجل قد ارتشف شيئًا من كأسه. الاثنان معًا قلبا الكأسين إلى معدتيهما دفعة واحدة. ووقعت المرأة ميتة في الحال.

نتيجة الارتباك في المشرب عقب الحادثة وجد الرجل الفرصة ليهرب. في البداية ظنت الشرطة أن المسألة هي مسألة انتحار، ولكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا في كأسها كمية قاتلة من الأستركنين. كشفوا عن هوية المرأة، وفي سكة الشبهات حددوا مكان العشيق واعتقلوه، وكان العشيق موظفًا حكوميًا.

دافع الرجل عن نفسه بقدر ما استطاع: إنه انتحار. إذا لماذا هرب؟ لا أحد يفكر في مثل هذه الساعات، بل على العكس يفقد عقله. إنك استفدت من غيابها لتدس السم. كانت تقول دائمًا أنها سترتكب عملًا جنونيًا وستقع على نتائج العمل.. هذا لا يثبت شيئاً، فالتبعة تقع عليك، وفي يوم من الأيام انتهى إلى الاعتراف: أن التبعة هي تبعني أنا.

عند صدور الحكم اندهش الجميع لأنه حكم بالبراءة: إن اعترافه قد تم في الشرطة تحت التعذيب الجسدي. وتم إطلاق سراحه لعدم وجود براهين ضده. ولم يعد أحد يعرف عنه شيئًا.

بعد سنتين دخل أحد محققي الشرطة إلى غرفة المفوض العام:

– أستاذ، توجد هنا امرأة جاءت تقدم شكوى. وقالت أنها تريد أن تتكلم مع سيادتك وليس مع أحد آخر.

– إذًا دعها تدخل..

دخلت امرأة في الأربعين من عمرها، عازمة وبخطوة ثابتة، وراحت تقول مباشرة.

– إنه يريد أن يقتلني كما قتل تلك المتشردة.

– أية متشردة؟ تعجب المفوض العام.

أخبرت المرأة قصتها: منذ أن قتل العشيقة راح يعيش مهددًا بقتل الزوجة وبالطريقة نفسها.

– يمكن أن يقتل، ولكنه في هذه المرة لن يستطيع الهرب، ولن يفلت من يد العدالة، إن البرهان موجود هنا.

– أين؟ – سأل المفوض وهو في كل مرة أكثر ارتباكًا.

– في شكواي، أستاذ، إذا مت فيكون هو سبب موتي. أريد أن أقدم شكوى ففي هذه المرة لن يستطيع التخلص.

عمل المفوض برغبة المرأة: نادى على الكاتب وطلب إليه أن يسجل الدعوى. كان الكاتب موظفًا عجوزًا وهو في الخدمة منذ ثلاثين سنة، فأحنى رأسه مسحوبًا بالالتباس:

– إنها المرة الأولى التي أواجه فيها قصة كهذه.. وأنا رأيت الكثير وواجهت العديد من القصص في حياتي.

– إنه سيعتبر موتي انتحارًا – أكدت الزوجة. بعد أن عملوا بطلبها، استأذنت وانصرفت.

تذكر المفوض القضية. أحد معاونيه كان قد عمل أيضًا في التحقيق نفسه فأرسل المفوض في طلبه.

– نحن لم نضع يداً على الرجل، يا حضرة المفوض. فقط بعض اللطمات العشوائية فأعطى إفادته كما هي. هو نفسه من قتلها: إنه رجل خطير ومن الواجب اليقظة.

وتيقظ المفوض العام. أرسل في طلب الرجل الذي لم يكن يبدو نوعًا خطيرًا – ولكنه كان عصبيًا، منحنيًا، وأكثر تقدماً في السن:

– لقد تعذبت عذاب أيوب، يا أستاذ. ضربوني على وجهي، وراحوا يرمون بي من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا. فبقيت أسبوعاً وأنا مغمى علي، فمن الذي لا يعترف في مثل هذه الحال؟ فقدت وظيفتي، ومعنوياتي، وتوجب علي أن أغير سكني وأنا أعيش في البؤس. وها هي زوجتي تريد أن توقعني من جديد في المأزق أنها تعيش كل الوقت مهددة بالانتحار وتريد أن تلقى علي بالتبعة. والأسوأ من هذا أنني لن أستطيع الخلاص في هذه المرة. إني أطلب كفالة.

أحس المفوض العام بنفسه شخصًا يفتش عن بيراندلو:

– أية كفالة؟ ضد انتحارها؟ ولماذا عليها أن تنتحر؟

– لقد برأت العدالة ساحتي ولكنها، هي زوجتي، لم تسامحني قط. وقد غدت نصف مجنونة. ألم تلاحظ ذلك؟

فتش المفوض العام عن الملاحظة عندما وصلت المرأة لتبدأ الفصل الثاني – أستاذ، لقد حان الوقت.

انتهى إلى وضع خاتمة للمسرحية:

– أطال الله بعمركما، لا أحد منكما يبدو طبيعيًا.

في نهاية الأسبوع طلب المحقق الذي كانت القضية قد أوكلت إليه إعفاءه من الموضوع:

– إني سأنتهي إلى الجنون، أستاذ. لن يحدث شيء لهذين الزوجين. إن أمرهما ليس أمرًا يوكل إلى الرجال! لم يبق سوى أن يطلبا مني أن أنام معهما في الفراش.

ووافق المدعى العام على إعفائه من الأمر وانتظر وقوع الانتحار – أو الجريمة – وبعد عدة أيام عادت المرأة إلى مكتبه وهي تبدو ميتة أكثر منها حية:

– جئت أسحب الدعوى.

– تسحبين الدعوى؟ – بدأ المدعي العام بالضحك:– إذا لقد تخلى عن فكرة قتلك؟!

– كلا، بل سيقتلني. إني ضائعة حقًا، ليس من حل، هذا الرجل شيطاني. أريد أن أسقط الدعوى لأنني تبينت أن الدعوى نفسها هي جزء من مخططه: كان هو من اقترح علي أن أشتكي. إنني ضائعة.

وتنهدت متماسكة:

– ماذا علي أن أفعل؟ لا أستطيع أن أنفصل عنه، لأنه سيقتلني إذا انفصلت، وحياتي الآن جحيم، فكل ما أشرب، وكل ما آكل، اعتبره طريقًا إلى الموت. لم يعد لدي أية راحة، ولا أستطيع أن أنام، فقط أفكر بأنه نائم بقربي ينتظر أن أغفل عنه.

في اليوم التالي جاء الزوج:

– إنها ستنتحر، أستاذ، ألم تر كيف أنها منهارة؟

وتنهد أيضًا منفسًا عن كربه:

– هذه المرة لن أستطيع الخلاص. كيف يمكنني مراقبتها ليل نهار وحتى نهاية العمر؟! إنها ليست حياة ومن سينتهي ميتاً هو أنا.

وبدأ المدعي العام يفقد صبره، فأرسل في طلب الاثنين:

– هذه المفوضية العامة هي للناس الميتين والمقتولين. أما هذه الرواية "ستموت" فليست من اختصاصي القانوني لا تلعبوا هذه اللعبة معي. عندما تكون هنالك جثة فأرسلوا في طلبي.. إن السيدة مزمعة على عدم الانتحار، والسيد مزمع على عدم ارتكاب جريمة. إذا انتحرت فهي منتحرة، وإذا قتلها زوجها فسيذهب إلى السجن. هل فهمتم؟

واعتبر الأمر منتهيًا. ولكن كان مكتوبًا في التقرير أن المسرحية لن تكون لها نهاية. والمرأة، متأثرة، سألت:

– وإذا انتحر هو وألقى علي التبعة؟

فقفز الزوج واتفقا وقال:

– أستاذ هي التي تفكر في قتلي.

ملاك برازيلي

جاء من أسبانيا إلى البرازيل كمهاجر وبدأ العمل أجيرًا مياومًا وظل يشقى إلى أن أصبح دلالًا لبيع العقارات. وكان خارج نطاق عمله يـــدرس الديانات السماوية. وفي يوم من عام ١٩٣٨ ظهر له ملاك وقال له:

– إنك ستعاني من حادثة خطيرة أيها العجوز، ولكنك ستخرج منها ســـالمًا لأن ساعتك لم تأت بعد.

أخبر زوجته بما رآه وطمأنها بقدر المستطاع وخـــرج إلى الشـــارع، تعرض لحادثة سيارة تظل بنتيجتها أربعة عشر يومًا في حالة غيبوبة، ولكنه لم يمت وكما قال له الملاك.

مرة ثانية، وكان ذلك في عام ١٩٥٦، عاد الملاك إلى الظهور:

– كما حدث سابقًا، يا عزيزي، هيئ نفسك لحادثة أخرى، ولكنـــها لـــن تأتي عليك فساعتك لن تكون قد أتت.

– متى تقع الحادثة؟ – سأل العجوز الأسباني مع قليل من الغيظ.

– عندما تبلغ من العمر ٦٦ سنة. حتى ذلك التاريخ يمكنك أن تطمئن.

وفي ٢٥ آذار ١٩٥٩، وقد ظهر الملاك من جديد، وقبل أن يختفي، عاجله العجوز بالسؤال:

– هل أستطيع أن أعرف الساعة؟

– إن الملاك لا يستعمل ساعة يدوية، ماذا ألم بك؟

– أعني الساعة التي سأموت فيها.

– ما دمت مصرًا على ذلك، في الثانية والنصف بعد الظهر.

وبينما كان يبيع أحد العقارات عانى من نوبة قلبية لكنه لم يمت.. وإذ غدا بين الموت والحياة راح يطمئن الجميع بأن كل أفراد عائلته، بالإضافة إلى الجيران يعتنون به أحسن العناية.

– وليس من خطر الآن، سوف أموت في ٢٥ آذار من عام ١٩٥٩ في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، قال لي الملاك.

– الملاك؟ أي ملاك؟

وسرت الشائعة سريعاً في الحي الذي يسكنه بيريز الأسباني أن ملاكًا قد ظهر له وجاء الفضوليون ليزوروه:

– كيف حدث ذلك يا سيد بيريز؟ ألم يقل الملاك شيئًا عنه؟ كيف كان شكله؟

– لم يقل شيئاً عنكم ولكن إذا أردتم فسأستجلي الموضوع في أول مرة يظهر لي فيها.

وكان يبهر الجميع مكررًا القصة وواصفًا ملامح الملاك:

– نصف مرتد ولكنه ليس سيئاً.

الوقت يمر والأسباني يكسب شعبية في الجوار. وأصبح لكل واحد سؤال، وتذكار، وطلب، عندما يظهر الملاك.

– إنه، لابد، هنا في الجوار، يتمشى في مكان ما، ولن يتأخر ظهوره.

في اليوم الموعود انقضى الصباح بالتحضيرات. وودع بيريز الأسباني جميع الموجودين، وترك أوراقه منظمة، وتخلى عن كل أشيائه، وعند الثانية عشرة ظهرًا راح ينتظر الملاك.

– من المناسب أن تهيئ شمعة لإشعالها في الوقت المحدد – قال الأسباني لابنته قال هل كل شيء في موقعه؟

نظر إلى الساعة وتمدد في الفراش، وفي الخارج اجتمع الجيران بانتظار اللحظة، وكانت الجموع تتزايد. إنها الساعة الثانية وعشرون دقيقة فارتمى الأسباني فوق الفراش ليموت. أما الناس فقد غـزت الغرفـة وكـذلك المصورون والصحفيون:

– "كارامبا". كم من الناس هنا! إنه يتعجب حتى من نفسه. كان يقـول ذلك ضاحكًا، ثم يستطرد إنه بهذه الطريقة لن يتسبب في إزعاج أحد، وأن قدره قد انتهى، وسيموت مقهقهًا لكي لا يسبب الحزن لأحد، وفي الساعة الثانية والنصف جمد في مكانه لا يتحرك بانتظار أن يموت. في الخارج كانت الجموع قلقة وهي تراقب تطور المشهد:

– إنها الساعة!

خيم الصمت ومكث الجميع منتظرين، مرتبكين، بانتظار أن يمـوت الأسباني. وهو هناك، في الفراش، ثابت، في وضع ميت، ورجلاه ممدودتان وأصابعه متشابكة:

– يا ابنتي، أشعلي الشمعة مرة واحدة.

أشعلت الابنة الشمعة ولم يحدث شيء. وها هي الساعة الثالثة إلا ثلثًا ولم يظهر الملاك.

– لم يستطيع الملاك الدخول بوجود هذا الجمع الغفير على الباب – جازف أحد الموجودين معلقًا.

سننتظر خمس عشرة دقيقة إضافية، نصف ساعة لا بأس، وأصبح التعليق في نهاية الأمر: لقد انتظرنا طويلًا.

ولكن الناس لم ترد أن تعرف شيئًا عن الانتظار وبدأت دلائل الغضب تبدو متواترة:

– كيف يكون الأمر؟ يموت أو لا يموت؟

– إذا لم يمت فسينال منا ما يستحق.

أصيب بعض الموجودين بثورة انفعال غاضب فصعدوا إلى النوافذ وكانت الجموع تهدر مهددة برجم البيت بالحجارة.

– يا ناس، خمس عشرة دقيقة، بعد – طلب الأسباني حزينًا – فليكن لديكم قليل من الصبر يا ناس.

– في الساعة الرابعة بعد الظهر لم يعد أحد يريد أن يعرف شيئًا عن الانتظار.

– إذا كان لابد له أن يموت فسنؤدي له هذه الخدمة.

أما الأكثر انفعالًا فقد جهزوا أنفسهم لغزو البيت ليحيوا الملاك:

– الآن هو مجبر أن يموت.

– لكي يتعلم ألا يعتبر الناس أغبياء.

– أقتله. أخنقه.

انتهى أحد الموجودين إلى استدعاء الشرطة، ولم تتمكن دورية واحدة من مواجهة غضب المتظاهرين وفتح الطريق وحماية الرجل.

– ما دام الرجل لم يمت فمن المناسب أن يذهب ليرتاح في أحد بيوتات الصحة – اقترح ذلك أحد الحراس دبلوماسيًا.

وكان على الشرطة أن تحمله وتهرب به لأن الجموع الغاضبة أرادت أن تقضي على سليل سليلته والأم التي خلفته.

– كارامبا! – قال الأسباني مترددًا:– أما هكذا فلا ..

وإذا كان عليه أن يقيم في حي آخر رغمًا عنه وبينما هو يتهيأ لينتقل، كان يتمتم:

– هذا جزاء من يتكل على ملاك برازيلي.

الرقيب السحري

كان أحد الرقباء يقوم بأعمال سحرية. اليوم لابد أنه عقيد أو عميد، هذا إذا لم يكن قد ترقى سحريًا إلى ماريشال وهو في ملابس النوم. تعلم مهنة السحر على يد ساحر أوروبي، وأنهى البرنامج كاملًا في ثلاث مواد: خفة اليد، والخداعية، وتلك المادة الأخيرة التي تعنى بالتخلص من الأغلال، والعقد والسجون، والتي صنعت مجد هودين، ولا أعرف أي اسم آخر كان يحمل. وكان زملاؤه في تعلم السحر صناعيًا من سان باولو، وبحارًا. أما الصناعي فقد تعلم ما فيه الكفاية ليجمع المال بسهولة ووفرة، وهو اليوم، رأسمالي كبير في تلك الولاية. وأمَّا البحار فقد انطلق في هذا العالم، وإذا لم يكن قد مات بعد، فلابد أن يكون متمتعًا بملذات المرافئ.

وكنا جنديين، بالإضافة إلى ذلك الرقيب، ونقيبًا غريب الأطوار، نلعب بالورق في غرفة أحد الفنادق. وكنا قد اشترطنا على الساحر أن يلعب عارياً فلا يرتدي إلا سروالاً داخليًا. ومع ذلك، وخلال ساعات طويلة، وعندما كان الحظ لا يحالفه، كان يقوم بخطوة غير منتظرة، بالأعجوبة المحيرة كأن يجعل الورق يختفي كليًا. ومهما كنا نحاول أن نعثر عليه فلم نكن نفلح في ذلك – وبحركة من الرقيب السحري كانت أوراق اللعب تبدأ بالخروج من أنف النقيب ولم يكن النقيب يتمتع بهذه اللعبة ولكنه كان يتغاضى عنها لأنه كان يربح دائمًا، وليس العكس بممكن، احترامًا للمراتب.

وعندما خرجنا مع الرقيب إلى الشارع توالت الأعاجيب: كنا ثلاثة أو أربعة مزمعين على دخول النادي المحلي لحضور حفلة، ولم نكن قد تلقينا سوى دعوة واحدة فعمل الرقيب على إعطاء الدعوة إلى البواب ثم نشلها منه وأعادها عدة مرات، ومع كل مرة كان يدخل واحد منا إلى الحفلة. لا أعرف كيف كان يفعل ذلك ولكني أؤكد أنه كان قادرًا علـــى أن يبقـــى هناك طيلة الليل يخدع البواب يسحره ويجعل كل سكان المدينة يـــدخلون إلى القاعة ببطاقة واحدة، وكان يخفي كل ما يقع بين يديه ثم يستعيده مـــن الأماكن المختلفة غير المتوقعة! أو يضع بيضة كاملة في فمه كما لـــو أنـــه ابتلعها، وكان النقيب يحس بشيء يثقل على جيبه بشكل غريب، فيمد يده ليتبين ما هو، فيجد بحركة تعجب بيضة داخل السترة.

– سحر تافه. قم بغيرها وأنا أعلمك.

وفي يوم تحدى النقيب الرقيب الساحر باقتراح عدة أمور:

– ابتلع أحد السحرة خاتمي ثم أعاده.

– إنها مسألة بسيطة، أجاب الرقيب – وأنا أقوم بها: أعطني خاتمك، أخذ الخاتم من النقيب، رفعه إلى فمه وابتلعه.

– أعطني خاتمي – اعترض النقيب وهو يفتش عنه عبثًا في جيوبه.

– لقد بلعته. غدا أعيده إليك.

ومع إلحاح النقيب، كان الرقيب يؤكد أنه ابتلع الخاتم تنفيذًا لأوامر النقيب، ولا أستطيع أن أحكم، ولكن المؤكد أن الخاتم أعيد في اليوم التالي.

وبلغت أعمال الرقيب السحرية ذروتها في يوم كشف لنا فيه عن أغرب الحذاقات التي يستطيع أن يقوم بها: حذاقة قدرته على التفلت من العقد والحبال وما شابهها. فبعد أن يرتبط بشدة إلى كرسي في الغرفة بلفات ولفات عديدة من حبل معقود عدة عقدات قوية، كنا نضعه خلف باب الخزانة وفي أقل من دقيقتين كان يفك نفسه ولكن لم يكن ممكنًا أن نرى كيف يفعل ذلك الشيء نفسه وينال المجد بعد أن نكون قد ربطناه جيدًا إلى الكرسي.. أطعنا الأوامر – في النهاية نقيب هو – وطلب منا أن نخرج من الغرفة ليحاول التخلص من الحبال بعيدًا عن أنظارنا.

خرجنا وذهبنا للعشاء. بعد العشاء نسينا النقيب ورحنا نتجول في شوارع المدينة – عند المساء تذكرنا النقيب فهرعنا إلى الفندق لنجده واقعًا على قفاه مع الكرسي أرضًا، ولا يزال مشدودًا إلى الكرسي وهو يلهث مشدودًا إلى الكرسي وهو يلهث بملء رئتيه محاولًا أن يقرع جرس الحائط برجله:

– يا أبناء التعاسة. سينالكم مني ما يعجبكم.

لم ينلنا منه شيء، ففي اليوم التالي تمكن الرقيب السحري من القيام بأعجوبة جعلت النقيب يختفي كليًا.

مشتركون

كان الباب مفتوحًا. وكان يكفي أن أظهر هناك وأجـــازف بنظـــرة استطلاع خاطفة إلى الداخل حتى يقف صاحب الشـــقة تاركًـــا طاولـــة الاجتماع ليستقبلني:

– تفضل. تفضل. كنا ننتظر وصولك حتى نبدأ الاجتماع: ألست صاحب الشقة ٣٠١؟

كلا لم أكن الرقم ٣٠١. إن صديقي الذي يقـــيم في الشـــقة ٣٠١ اضطر إلى السفر بصورة مفاجئة إلى أن أمثله في هذا الاجتماع.

مد الرجل يده ليصافحني، وبحركة حازمة:

– إذًا أهلًا وسهلًا.

قال أنه يُدعى "ميلانيز" وتقبل اعتـــذاري عـــن التـــأخر بابتســـامة ميلانوية، ومنذ تلك اللحظة شككت في أنه نصف أصم، ولكنني فيما بعد أن تبينت أن ظهوره بمظهر من كان قد فهم كل شيء قبل أن ينطلـــق بـــه الآخرون لم يكن صممًا بل كان الحمرنة نفسها.

اقتادني إلى الداخل داخل الشقة بحيث عدة أشخاص، أحد عشـــر أو اثنا عشر منهم كانوا قد اجتمعوا حول الطاولة. ولدى وصولي رفع الجميع رؤوسهم بشكل شبيه بمنظر دجاجات بيَّاضة تقف عند مشـــاربها. كانـــت الشقة مؤثثة بشكل أنيق للغاية، مفروشة بالســـجاد، ومزينـــة بالثريـــات.

والزهور، واللوحات الفنية بصورة تتم عن ذوق سيئ ينسب إليه ما اتفق الناس على تسميته "بالديكور". وقام ميلانيز بالتعريف:

– هنا الدكتور ماتوزو من الشقة ٣٠٢.. عندما تحتاج إلى طبيب.. وهناك النقيب بارتا من الشقة ٣٠٤ وهو ممثل القوات المسلحة المظفرة. السيدة جورجينا والسيدة ميرتيز، شقيقتان، لا أحد يعلم أيهما أكثر لطفًا، وهما من الشقة ١٠٢. وذاك هو الأستاذ لوبيسينو من الشقة ٢٠١، ونقيبنا في المستقبل (نقيب نسبة إلى نقابة).

كانت كلماته تستقبل بابتسامات مفتعلة تعبر عن تكراره للنعم التي يوزعها مجانًا في كل مرة وصل أحد المشاركين إلى الاجتماع. سلَّمت على الطبيب الذي كان يبدو صاحب سحنة شبيهة بسحنة قاتل، أكثر منها بسحنة طبيب، كما سلَّمت على النقيب الذي لا يزال يقتني شارب رقيب أول، وعلى السيدتين المرتديتين اللون الأسود لا تعرف أية واحدة منهما أكثر بشاعة من الأخرى، وعلى رئيس النقابة في المستقبل، وعلى الآخرين جميعًا. أما رب البيت قد بلع "كرشة" واستجمع أفكاره جالسًا إلى رأس الطاولة معتزًا بنفسه.. فتشت عن المكان الوحيد الشاغر في الناحية المقابلة، وجلست. وقدمت لي زوجة "الميلانووى" كأسًا من عصير الليمون، وعندها فقط لاحظت أن الجميع كانوا يرتشفون ذلك العصير جرعات خفيفة، وأن تلك الطريقة هي المعتمدة ومن المناسب تقليدهم في ذلك. أحد الموجودين، كان ينتظر بوقار، والورقة في يده، ريثما يستقر النظام، ليتابع.

– اعتذر عن مقاطعتكم – تمتمت – تستطيعون أن تتابعوا.

– لم يكونوا قد بدأوا بعد – اعتذر الميلانووى متفكهًا – كنا فقط نتبادل الأفكار.

– إذا رغبت فبإمكاننا أن نبدأ كل شيء من جديد – واستطردت الزوجة الميلانووية بصورة أكثر فعالية – هنا، صديقنا جورج، من الشقة ٢٠٣، كان يقول أننا نحتاج.

– عفوًا، من كان يقول هو الأستاذ لوبيسينو – وإذا بالصديق جورج من الشقة ٢٠٣، المنتفخ ككيس صغير من الجلد وضعت فيه نظارتان، قد وضع على هامش الورقة. وهنا تدخل النقيب مسجلًا هدفًا.

– تستطيع أن تتابع القراءة.

أحدهم بقربي أوضح:

– إن الأستاذ لوبيسينو قد وضع مسودة مختصرة للنظام الداخلي، وأنت تعلم أن النظام مفيد دائمًا وضروري.

هدد الأستاذ لوبيسينو وقرأ بصوت عال:

– خامسًا. يحظر على المقيمين في هذه العمارة.. انتظر.. توجه إلي بالحديث:

– هل تريد أن أقرأ المواد الأربع الأولى؟

– ليس ضروريًا – تدخل الميلانووى: إن المواد الأربع الأولى هي فقط تمهيد لتشريع المادة الخامسة هيا بنا. اقرأ.

– خامسًا: يحظر على المقيمين الاحتفاظ بالمتفجرات من أي نوع كانت في داخل الشقة.

انحنى النقيب قليلًا إلى الأمام مبديًا الاهتمام:

– هذا ما كنت أقوله. هذه المادة ليست صحيحة: لنفترض أنني، كنت ضابطًا في الجيش، جلبت معي إلى البيت بعض الديناميت..

– هل ستضع ديناميت في البيت يا نقيب؟ تعجبت إحدى العجائز السيدة ماتريز.

– لا. لن أضع. ولكن في يوم قد اضطر إلى أن آتي به..

– إنه خطرٌ كبيرٌ يا نقيب!

– يا إلهي، الأطفال – وسيدة جالسة إلى ركن الطاولة رفعت يدها معترضة:

– أجل.. هو هذا بالضبط ما أريد أن أقوله: إنه خطر كبير – قال النقيب: يجب أن نمنع هذا.

– ماذا.

لم يفهم أحد ما كان يريد النقيب أن يقوله. وعاد إلى الحشوة:

– وتخيل في يوم أن الديناميت قد انفجر فسيقتل الجميع: يجب أن يكون واضحًا في النظام: "ممنوع حظر المتفجرات من أي نوع كانت داخل الشقق".

– ممنوع حظر "يعني أن بإمكانك أن تضع متفجرات في الشقة – قال كاتب النظام وهو نصف محتار من أمره – بل يعني أنك لا تستطيع أن تضع متفجرات في الشقة – أجاب النقيب وهو يكاد ينفجر بالغضب.

لم يكن النقيب يعلم ماذا تعني كلمة "يحظر" – ولم يكـــن ممكنًـــا أن يخرجوا من تلك الأزمة لو لم يتدخل الصديق جورج مـــن الشـــقة ٢٠٣، محركًا شفتيه:

– "يحظر" يعني "ممنوع" يا نقيب. "يحظر المتفجر" – ممنوع المتفجر".

– "يحظر" ممنوع؟.. ارتبك النقيب ولكنـــه لم يقبـــل أن تلتـــوي ذراعـــه "بالمكاتبة".

– أعرف. ولكن علينا أن نضع "ممنوعًا" بصورة أوضح. المسألة المتعلقـــة بالمتفجر كبيرة، وهذا "الخطر" قليل، يجب أن نضع كلمة "ممنوع" لنعطـــي المنع قوة أكبر، هل فهمتم؟ لا "يحظر"..

استمر بالقراءة، أمر الميلانووى النقيب وقد حظره جهله.. أقفل فمه. استمر الأستاذ لوبيسيانو في القراءة، وما هي إلا فترة قصيرة حتى صـــرف الجميع انتباههم عنه: الجميع كانوا يوافقون برؤوسهم عند نهاية كل مادة، في حين كان الرجل يجول بناظريه في الصالة ليحصد الموافقات. وفي إحدى المراحل، طلب الميلانووى مقترحًا مقاطعة النظام الداخلي لإعطاء الأولوية للانتخابات – لقد تأخر الوقت ويجب أن يولد رئيس نقابة في تلك الليلة. واستفادت الميلانووية من المناسبة لتذهب وتعود بمزيد من العصير.

إني اقترح تسمية الأستاذ لوبيسينو كرئيس للنقابة – قالت إحـــدى العجائز، وهذه هي المرة، السيدة جورجينا..

وافق الجميع ما عدا الميلانووي الذي – بنفس الطريقة – يريـــد أن يكون رئيس نقابة أيضًا.

– نحن نعيش في ظل الديمقراطية – تكلم الظريف مستظرفًا نفسه:

– ودون أن ننتقص من صفات الأستاذ لوبيسينو التي تخوله المركز باستحقاق، أعتقد بأن علي أن أساهم مساهمة فعالة في تنشيط مؤسساتنا الديمقراطية: الاقتراع السري.

– ليس ضروريًا أن يكون سريًا – ابتسم لوبيسينو متأكدًا من فوزه:– نحن قليلون ويعرف واحدنا الآخر كأننا عائلة واحدة تقريبًا.

– ماذا يعتقد الرقم ٣٠١؟ – سألني الميلانووي محاولًا كسب صوتي. أما أنا، في التصويت، فحالة لا تقبل التبدل، بها أؤيد دون تردد لوبيسينو، اللهم أن تتذكر ربة البيت، وحتى لحظة الانتخاب، أن تأتيني بغير عصير الليمون شرابًا.

أجبته بأنني لا أرغب في التدخل، ولست أكثر من ممثل لأحد أصحاب الشقق.

– ألبس السيد مشتركًا؟ تعجبت السيدة الجالسة إلى ركن الطاولة بوقار:

– إذًا، من الذي يقيم فوقي؟ أنا الرقم ٢٠٢.

شرحت لها أنني لم أكن مشاركًا – وهذه اللفظة هي التي جعلتني حتى الآن عاجزًا عن استجماع شجاعتي لشراء شقة.

– إني أمثل الرقم ٣٠١ فوق السيدة يجب أن يكون الدكتور ماتوزو، الذي، إذا كنت قد سمعت جيدًا هو الرقم ٣٠٢.

ابتسم الدكتور ماتوزو بتحبب، موافقًا:

– هل أحدث ضجيجًا يا سيدتي؟

– كلا إطلاقًا – اعترضت هي، وقد وضعت يدها من جديد فوق صدرها حتى إني أكاد أسمعها.. السيد يترع حذاءه وينتعل المشايه..

– هل السيدة هي الرقم ٢٠٢؟ – سألت إحدى العجائز السيدة مـــارتيز من جديد – إن مجاريك معطلة بالتأكيد، وهي ترشح ماء فوق حمامنا.

العجوز الأخرى وافقت بصمت على التهمة الأخـــيرة وهـــي تهـــز برأسها، وفي هذه الأثناء كان الميلانووي يجهز الاقتراع: قطع ببطء وعناية فائقة ورقة بيضاء إلى اثنتي عشرة قطعة وزعها على الجميع:

– وصندوق الاقتراع؟ أين صندوق الاقتراع؟

إن صندوق الاقتراع سيكون وعاءً فخاريًا

وتحوَّمنا حول الطاولة واقفين ونحن نمارس حقنا المقدس في الاقتراع. وتم فرز الأصوات وجاءت النتيجة بفوز الأستاذ لوبيسينو نفسه بأغلبيـــة ساحقة: ولم ينل الميلانووي غير صوت واحد هو صوته بالتأكيد. والسيدة الميلانووية؟ حازت على صوت واحد هو صوت التي كان سقف حمامهـــا يمتص ويرشح المياه من المجاري المطلة في الأعلى، وقد تبينت ذلـــك مـــن نظراهتا التي كانت تلقيها عليه حاملة كل المعاني التي لا معنى لها.. هنـــأت رئيس النقابة الجديد ورميت بنفسي إلى الخارج بينما كـــانوا قـــد بـــدأوا يهددون بالعودة إلى النظام الداخلي، عندما قال النقيب: يفهـــم بكلمـــة "الأماكن العامة المشتركة": السلم، الممرات، مشاجب الملابس، ومـــدخل

غرفة الخدمات، والموقف. أما المصعد الذي هو خاص، ولكنه أيضاً مشترك حكماً..

وعند الخروج. تبينت أن العمارة لم يكن فيها مصعد.

السمين والنحيل

كنت أتمشى في شارع دو أفيدور، عندما نادى على أحدهم باسمي:

– ألا تتذكرني؟

كان رجلًا نحيلًا يضع نظارتين وذا شارب رقيق، ويبدو في الثلاثين من عمره.

– إن شكلك غير غريب عني، ولكني أعترف بأن..

– لا. أنت لا تذكرني – وبابتسامة، أنقذني من الوضع الصعب الذي أنـا فيه وهو يقول لي اسمه. وجاء دوري لأبتسم:

– جيد، ولكني بهذا الاسم أعرف أحدًا آخر غيرك ولكني لا أعرفك.

– أنا هو نفسه – أصر.

– كلا. إن الذي أعرف ليس نحيلًا مثلك..

– على العكس تمامًا أنا سمين وزني أكثر من مائة كيلـو. مائـة وعشـرة كيلوات، على وجه الدقة.

نظرت إليه بغرابة، وفجأة. كان علي أن أحافظ على توازن رجلـي كيلا أقع: كان هو نفسه وقد بدأت أتذكر. إنه هو نفسه وقد اختـزل إلى نصفه بعملية كيمائية ربما.

– أخوه؟ – أمعنت في المجازفة: – إنكما تتشابهان حقًا.

– أي أخ؟ لا أخوة ولا شيء من هذا القبيل. أنا هو نفسه، مع هذا أصبحت متعودًا على هذه الاندهاشات. لقد اتبعت تمارين لتخفيف الوزن وخسرت خمسة وخمسين كيلو غرامًا خلال ستة أشهر.

في الحقيقة لم أكن قد رأيته منذ زمن طويل. إنه حقًا هو نفسه مختزلًا إلى النصف. كان صعبًا علي أن أصدق. أي نوع من تمارين تخفيض الوزن هو هذا؟ ورحت أتفحصه مميزًا تفاصيله من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه كأنه ظاهرة استثنائية – وكان هكذا حقًا – ففي مركز المدينة تحوَّل الفيل فجأة إلى تيس ماعز، وبنظارتين تبدوان لي الآن كبيرتين على وجهه – لو أن المسألة اقتصرت على النظارتين لسهل الأمر – اعترف هو متابعًا:

– ولكن كل شيء في أصبح أكبر من قياسه العادي، وحتى المساحة التي أشغلها وأنا جالس.

وراح يشرح لي طبيعة العلاج الذي أخضع له: أن طبيبًا، نباتيًا إذا لم أخطئ الاعتقاد (أعطاني اسمه وعنوانه في حال احتجت إليه، ولكن شكرًا، لم أكن بحاجة) أعطاه وصفة غذاء خاصة وكل شيء فيها موزون ومقلص جيدًا. وبعد وقت قصير أصبح هو قادرًا على قياس أي غذاء بنظرة واحدة وبدقة ملليمترية. وبالإضافة إلى ذلك، تمارين خاصة وتدريبات للغدد.

– أجل وفهمت – هززت رأسي، مرتبكًا، ولكني رأيت هذه الظاهرة البشرية أمامي ممتعة:

– ولكن أين تركت نصفك الآخر؟

– أي نصف آخر؟

– الجزء الآخر منك. يا إلهي، لن تقول لي أنك أنت "الرجل الجبار الـذي ابتلعه".

– (ضحك).. تركته هناك، لا أعرف أن أقول كيف. حـدث الضـعف بسرعة مذهلة إلى حد أنه لم يعطني الوقت الكافي لأتكيف نفسيًا مع الحالـة الجديدة. وحتى اليوم عندما أجد ظرافة في أمر ما، أتفاجأ وأضحك مقهقهًا على رجل سمين منحن إلى الوراء ويمسك بطنه بيديه، وعلى الشاطئ عندما كان يناديني أحد للاشتراك في لعبة ما ككرة القدم، مثلًا، كانت ردة فعلي الأولى هي أن أجيب بأنني لا أستطيع، وفجأة انتبهت إلى أنـني أسـتطيع والتحقق راكضًا، وكل خطوة الآن كأنها خطوة ماعز يقفز، وإلى درجة أنني أحس بأنني أطير. هكذا، خسرت ٥٥ كيلو غراماً، واسـتعدت مكانهـا الأمكنة التي كنت افتقدها في المصعد، أو وسائل النقل، والمداخل الضيقة.

وما أثار تعجبي هو أن جلده قد تقلص وأصبح يحتوي النحيل بـدل السمين وبصورة طبيعية.

– هل أجريت أية عملية شد جلد؟

– لم يكن ضروريًا. إن في الجلد مطاطية عجيب على أن لا يكون الشخص طاعنًا في السن. وهو كما هو يتمدد ويتقلص. لا أعرف إذا كنت تعلـم كيف.

– أعلم. أعلم.

– ولكن المشكلة هي أن الملابس نفسها لا تتقلص: لقد توجب علـى أن أوصي علي كل شيء من جديد: الأطقم، والقمصان، والملابس الداخلية، وكل شيء.

– وأنت، ألست مشتاقًا إلى السمين؟

– مشتاق – وافق بعد أن فكر قليلًا:– أشتاق أحيانًا. حتى أنه كان شخصًا ظريفًا، يعاملونه باحترام أكبر، ويحافظون معه على المسافة، وكانت الحياة أسهل شروطًا.

– كانت الحياة أثقل مما هي – جازفت بالقول.

– ليس إلى هذا الحد: فكل شيء نسبي. إذا صعد اليوم رجل يزن خمسة وخمسين كيلو غرامًا إلى ظهري فلا أستطيع أن أحمله بالسهولة التي كنت أحمله بها.

– إذًا لماذا لا تعود سمينًا؟

– حتى لو أردت فلا أستطيع. إن العلاج خرافي إلى هذه الدرجة: أستطيع أن آكل وأشرب كل ما أريد دون أن أسمن. الآخرون الذين لم يكونوا يعرفونني سابقًا أصبحوا قلقين علي: "أصبحت نحيلًا جدًا ويجب أن تسمن قليلًا".

وإذ انحنى إلى الخلف أطلق ضحكة من ضحكات ذلك السمين الذي كان وقبل أن أخرج من اندهاشي، استأذن منصرفًا:

– يجب أن أتمشى. لا تبق واقفًا هنا تنظر إليَّ كما لو كنت شبحًا!

ورأيته يبتعد، لا كما تبتعد الأشباح، بل بخطوات واثقة، قوية، وبذراعين بعيدتين قليلًا عن الجسم. كأحد يضرب بجناحيه بين الحين والآخر ليرتفع عن الأرض.

إن حكاية تخفيض الوزن تلك لها حكايات، كنت فيما بعد قد قرأت تحقيقًا في إحدى المجلات عن ذلك اللقاء مع النحيل الذي كان سمينًا وبدأت أستلم رسالة من كل من هو سمين في البلد، يطلب فيها اسم الطبيب الذي أضعفه. لم أعد أتذكر اسم الطبيب وأصبح وضعي مرهقًا، لأنني لا أفصح عن اسم الشخص بتكتم طبيعي، ولم أكن أعلم إذا كان علي أن أعطيهم اسمه ليلقوا عليه القبض بأنفسهم، وعندئذ وجهت نداءً صحفيًا إليه: إذا كان يقرأني صدفة وإذا كانت قصة تخفيض الوزن التي رويتها لم تثر حفيظته، فإني أرجوه أن يرسل إلى اسم الطبيب "المضعف" حتى أستطيع أن أستجيب إلى السمان الكثيرين في هذه المحلة، أما ما هو متعلق بالطبيب. وإذا كان قد اطلع على هذه المساجلات، فإنني أكون ممتنًا للغاية أن يفصح عن نفسه إلى الزبائن العديدين الذين يغزون عيادته الاستشارية بين ساعة وأخرى.

وفي يوم اتصل بي هاتفيًا النحيل – السمين سابقًا – وهو يقهقه مما أثار شكوكي لأن تلك القهقهات لا يستطيع أن يطلقها إلا السمان جدًا:

– قرأت ما كتبته – شرح لي دون أن يتكلم تقريباً.

أرجو ألا تكون قد تكدرت – أجبته متخوفًا.

– لا.. على العكس، لا تستطيع أن تتصور كم تسليت.

– جيد. إذًا انظر جيدًا – وتنفست، مستعيدًا حريتي في التعبير:

– إن جميع السمان الآن يريدون أن يعرفوا اسم الطبيب، هل يمكنك أن تعطيني إياه؟

- إنني في وضع هؤلاء تمامًا – ولم يعد يستطيع أن يتماسك عن الضحك:

- إنني أنا نفسي أريد أن أتعرف على هذا الطبيب.

- أفهم أنك لم تتبع ذلك العلاج؟.

- اتبعته، لكني أريدك أن تراني الآن.

لقد كنت ضحية مزحة كبيرة، اعتقدت:

- ماذا حدث لك؟

- ما حدث هو أن قصة الضعف والسمنة يا عزيزي. لا طبيب ولا شيء من هذا: إن المسألة مختلفة تمامًا تأكل أو لا تأكل، هذه هي المسألة أصبحت نحيلًا، ثم أصبحت قادرًا على أن آكل كل شيء فابتدأت آكل، لو رأيتني اليوم.

وختم كلماته بقهقهة إضافية:

- إنني أزن من جديد مائة وعشرين كيلو غرامًا، وعدت سمينًا كما كنت سابقًا.

لوحة لرسام يوم كان شابا

كان ذلك في نزل صغير من مجمع سكني كبير. كل ليلة، كان الرسام والمهندس يذهبان إلى غرفة البروفسور.

– بروفسور، هل تعرف ذلك الرسم لإقليدس داكونيا وهو يمتطي حصانًا أبيض؟

كان يسأل الرسام في مرحلة ما من الحديث. وكان البروفيسور يجيب مطعونًا في كرامته:

– رسم كهذا لا وجود له! أقسم بالله أن لا وجود له! ولا يمكن أن يكون موجودًا!

كان طبيعيًا أن يحس البروفسور بكرامته مطعونة: فإن اختصاصه كان إقليدس داكونيا. وكان يملك سيرته الذاتية كاملة، ولم يكن شيء يفوته من هذه السير، بما في ذلك من وسائل ورسوم ثمينة. وكانت مكتبة البروفسور محفوظة في حقائب وعندما كان يريد أن يستشهد بنص من النصوص ليربح السجال، وهو عامة عن إقليدس داكونيا، كان يكفي أن تراه يفتح الحقائب ويقفل حقائب، وحقائب أخرى، منهمكًا، وراميًا بالكتب أرضًا.

– كان إقليدس غليظًا – يقول الرسام، ويضيف المهندس:

– كان مراسلًا فتطور إلى بهيم.

وكان البروفسور ينفجر غضبًا ويطردهم من الغرفة.

أكثر من هذا، لم يكن أحد يعرف في أية مادة كان بروفيسورًا، ولم يكن الرسام والمهندس يتركانه بسلام:

– بروفيسور هل تعيرني منظارًا مزدوجًا؟

لم يكن البروفيسور يعيرني. كان يعير منظاره المزدوج فقط خدمة للوطن. لأن البروفيسور، بالإضافة إلى اختصاصه بإقليدس داكونيا، كان عنده اختصاصان آخران: المنظار الازدواجي والعصى. ومن وقت لآخر كان يصل عند الباب رقيب من الجيش وهو يقول أن قائد الفرقة يطلب استعارة المنظار فكان البروفيسور يعيره:

– للقيادة العامة، أجل، أعير.

كان يضع المنظار في حقيبة كبيرة ليعود بعد ساعات، ليقول للنزلاء الآخرين، بحزم، في قاعة الطعام:

– يمكنكم أن تكفوا عن الطعام، لأنكم اليوم لن تروا "إصبع الله".

كان يقول ذلك وهو يمر بهم، ولا أحد من أولئك كان يفكر في أن يرى "إصبع الله".

كان الرسام يفكر في التخلص من الأمير، جاره في الغرفة، الذي عوّده على استدانة مبلغ من المال في كل مرة.

– إن سموك، لا تخجل؟ أمير روسي! ماذا يقول عنك القيصر لو علم بتصرفك؟

– إن صيد الفراشات لا يعود بالمال اللازم للمصاريف.

كان الأمير يجمع الفراشات. أحيانًا كانت الأعمال تزدهر لدى رسو سفينة في الريو يبيع ملاحيها من مجموعته، وعندما يصبح المال في الجيب يبدأ بتجاهل الأصدقاء "أميريًا" وكان يذهب للتتره على الشاطئ على نفقته مرتديًا معطفًا أنيقًا يمتلكه مربوطًا بحبل ملون لا يناسب صاحب المترل بمقاساته الكبيرة. وفي يوم قرر الشاعر الذي كان يحضر أحيانًا للعشاء، أن يهتك قناع الأمير:

– هذا الأمير لم يكن، يومًا، أميرًا.

– إنه أمير.

– لا هنا ولا في الصين.

– في روسيا.. (كان يضيف الأمير مفحمًا).

– إذًا عندما تمر من هنا ضب ذيلك.

كان الأمير يقوم بقياس الشاعر ويخرج. ولسبب بسيط فإن الشاعر لم يهو بيده على وجه الأمير لأن ذلك التصرف سيكون غير عادل، ولأن الناس هناك كانت تعتبر الرجل أميرًا.

في هذه الأثناء كان البروفيسور في غرفته غارق في البيرة. وكان يشرب البيرة في مصبنة من الألمونيوم. لأنه، وفقًا لنظريته فإن الألمونيوم وحده هو الذي يحافظ على طعم البيرة الأصيل، وكانت القناني عديدة يخجل عندما يأتي بها الخادم حاملًا منهما صندوقًا يحتوي على دزينتين:

– هل يمكنكم أن تؤدوا خدمة لي بإقفال الباب؟ – كان يطلب ذلك بنعومة من المقيمين – ستأتي إلى هنا سيدة لتزورني وتفضل ألا يراها أحد.

كان الرسام يضع أنفه في الباب:

– عن إذنك، بروفيسور.

– أدخل يا بني، ولكن قبل أي شيء احترم نفسك: بكي قميصك، وشد ربطة عنقك. هكذا. الآن أدخل ولكن حذار أن تدوس على شيء.

وكان الرسام يدخل مهتمًا، مارًا بين الكتب والقناني والعصي:

بروفيسور، يوجد هنا في الخارج صديق لي يريد أن يشاهد مجموعة العصي وهو يهتم كثيرًا بهذا الموضوع.

– كذا. لو كان صحيحًا ما تقول لكنت عرفته.

– .. إنه مولع بإقليدس، بروفيسور، مسألة نادرة، أعتقد أنك لم تره بعد.

– أخرج من هنا، يا منافق.

وكان البروفيسور يلوح بالمائتي عصا التي جمعها.

في يوم تصرف المهندس تصرفًا لم يغفر له: ارتدى ملابسه الأنيقة كما لو كان خارجًا، وعلق على ذراعه عصا استعارها ثم ذهب إلى غرفة البروفيسور. تظاهر البروفيسور بأنه لم ير شيئًا، وتحادث، وتمنظر، وتأقلد، وفي الساعة التي كان المهندس يهم فيها بالخروج مستأذنًا، لم يتمالك البروفيسور نفسه:

– إنك لا تخدعني، أيها الشاب. أعرف أن هذه العصا مزورة.

وكان الأمير مارًا من هناك.

– يا سمو الأمير، تعال لتناول كأس بيرة – دعاه البروفيسور، ثم سحب المصبنة من جيبه.

– لا أستطيع، بروفيسور – شكر الأمير وهو يجمع رجليه:– سأذهب لاصطياد الفراشات.

كان الأمير خارجًا، والمهندس ضاحكًا، والبروفيسور يجمع نفسه، وكل شيء كان يخرج منه دخان مما هو اليوم بالنسبة إلى الرسام ذكريات شباب في يوم ما من عام ١٩٢٩.

جيمي جونس

مازلت، حتى اليوم، عندما أتذكر جيمي جونس أحس بانقباض في صدري، إنه وخز، إذا لم يصل إلى حد إيلام الضمير، فهو من تلك الوخزات التي تظل تزعج الوجدان طيلة الحياة.

التقيت به في المرة الأولى أثناء رحلة من ميامي إلى نيويورك. كان زنجيًا متوسط العمر، وخفيف الظل شأنه شأن كل موسيقى الجاز في الحقيقة، كان قد أخبرني بأنه كان عازف ساكس في فرقة تشيك ويب الموسيقية – وكان عازفًا جيدًا – ولكنه أهمل آلته الموسيقية على أثر عملية جراحية وهو يعمل الآن كحاجبٍ في القطار. واتفقنا على موعد في برودواى، وقد أخذني معه نطوف في عدة نواد للجاز. وحيث كنا ندخل، كان الموسيقيون يأتون ليعانقوه بشوق – كان معروفًا جدًا ولا يزال يتمتع بامتيازات بين رفاقه. توصلت إلى أن أرقص مع زوجته التي كانت ترافقنا –: كانت زنجية سمينة ولطيفة تسعى بأكبر قدر ممكن من التمييز إلى إخفاء تلك العقدة أمام أبيض ليس في ذهنه أي حكم عنصري مسبق. وإثر تلك الليلة الأولى انهمكت في أعمال أخرى وأضعت جيمي جونس.

ورأيتني، بعد وقت طويل في الساعة الحادية عشر ليلًا أفتش في أكثر شوارع هارلم ظلمة، فقد كنت مهتمًا بكتابة تحقيق عن مشكلة الزنجي في الولايات المتحدة عندما تذكرت جيمي جونس فاتصلت به هاتفيًا، فأجابني

متفاجئًا فرحًا ودعاني في الحال إلى الذهاب إلى بيته الذي سجلت عنوانه ولا أستطيع الآن أن أعثر عليه.

كان ذلك في زمن جعلت بعض الحوادث المؤسفة دخول الأبيض إلى حي الزنوج في نيويورك أمرًا خطيرًا للغاية. وكانت الانفعالات على أشدها لأنه في تلك الأيام بالذات ستجرى مباراة بطولة العالم في الملاكمة والتي كان بطل أسود يتنازعها مع آخر أبيض. وتم مضاعفة قوى الشرطة وراحت الصحف تطلب من الجميع الامتناع عن أية إثارة. وحيدًا في سيارتي تائهًا في الحي الزنجي خائفًا من الاقتراب من الظلال القاتمة التي كانت تتحرك في الزوايا. فتشت عن جادة ذات حركة نشيطة وعندما تجرأت على إزعاج أحد الحراس، وهو أيضاً زنجي، أمرني أمرًا بمتابعة السير لأنني وأنا أقف تسببت في انقطاع حركة المرور. رجل وامرأة واقفان عند موقف الباص لم يتكرما بإعطائي أي جواب. سائق في محطة التاكسي، وعندما أريته العنوان اكتفى بهز كتفيه والقول بأنه لا يدري. رفعت عيني إلى اللوحة المعلقة عن الركن، على بعد خمسة أمتار مني: فكان هنالك الشارع الذي أفتش عنه.

تحققت من الرقم فطالعتني عمارة مظلمة، غامضة، ذات سلم أصيب بالصدأ. بدأت بطلوع السلم بحذر إلى أن بلغت الطابق الرابع، ولم يكن هنالك ضوء من أي نوع كان. سمعت خطوات أحدهم فأدرت ظهري إلى الحائط:

اشتغل عود ثقاب بواسطته تمكنت من رؤية زنجي طويل نحيلًا يحمل طفلًا صغيرًا على ذراعه.

– مساء الخير – قال وهو يمر.

– مساء الخير – أجبت بخجل واستنتجت أن تكون هذه تقاليد المكان: كأن تسلم على أي شخص تراه.

قرعت جرس الباب الذي أفتش عنه، ولراحتي النفسية كان جيمي جونس نفسه من جاء ليفتح ويدعوني إلى الدخول بعد عناق حار. كانت غرفة ضيقة ذات أثاث متواضع ومعزف قديم في الزاوية، ولكن لكل شيء كان يشير إلى أنني جئت أفاجئ المقيمين هناك في يوم عيد: فوق الطاولة عدة صحون من الكرزات وعدة قناني كولا وقنينة روم. حيتني ربة البيت بفرح وقدمتني إلى سائر أفراد العائلة، وهم سلم من نصف دزينة زنوج صغار ظرفاء ومنطلقين بهجة. اثنان أو ثلاثة كانوا موجودين فاستداروا نحوي بكل لياقة لاستقبالي وعادوا يجلسون، وبهدوء أرادوا أن يتجاهلوني. بعد ذلك بقليل وصل الشخص الذي كنت قد التقيته على السلم وهو يحمل قدره معه مليئًا بالثلج. وكان الحديث عامًا، ومن وقت لآخر كانت تفلت مني بعض الأسئلة التي كنت أناضل من أجل الحصول على أجوبة عنها وأنا أخبط الأمور بالإنكليزية خبطًا.. كان ينقصني أن أكون طبيعيًا. أحس بنفسي محرجًا في اجتماع الأصدقاء، ذاك. وكل مدعو جديد كان يصل كأنه يسأل بالطريقة المهذبة والإطراءات التي ترافقها عما كان يفعل ذاك الأبيض هناك؟ لم أكن قادرًا على أن أرافق السكة اللغوية التي كانوا

يسلكونها وكنت أرى نفسي ضائعاً عندما كانوا يفتشون عن إشـــراكي في الحديث جلست ربة البيت وراء المعزف، وراح الجميع يرتلون أغان زنجية ذات أنغام دينية، متناسقة، في جوف ذات عفوية كان وجودي يعكرهـــا. وعندما تعاقب الأولاد نحو أمهم تركت المعزف وراحـــت تهـــتم بتقـــديم المشروب إلى الضيوف، بينما جيمي جونس كان يقوم بالمهمة مفتشًا عـــن جعلي مرتاحًا وطلب مني أن أتكلم عن البرازيل، وعن موسيقانا — وكنت أحس باهتمام بي جعلني أجد الكلمات بصعوبة. فتحركت عازمًا علـــى أن أخرج من هنا بكل الثقل الذي كنت أسسه:

– أنظر إني سأذهب الآن: وسأعود في ليلة أخرى..

نظر إلى رب البيت، خائب الظن:

– أتذهب الآن؟ لماذا؟ ألست مرتاحًا؟

التفت الجميع نحوي، بتهذيب رفيع، دون أن يفهموا شيئًا مما كـــان يحدث وعبر الصمت الذي خيم. خرجت مع كل ما بدا لي منطقيًا، مـــن أعذار:

– كما قلت لك، كنت مهتمًا ببعض المعطيات المتعلقة بالمشكلة العنصـــرية في الولايات المتحدة.. ولكنك اليوم، هنا، مع أصـــدقائك، ولا أريـــد أن أزعجكم أعود في وقت آخر.

استأذنت كل واحد بمفرده، ومد لي الجميع أيديهم صامتين.

– يجب أن تعود – طلب مني جيمي جونس، وهو يقودني إلى السلم ويسلم علي مرة أخرى بانكسار مفاجئ.

فقط عندما وصلت إلى البيت وقعت باللوم على نفسي بعد أن قست الأمور متمعنًا وتبينت مدى الحماقة الكبيرة التي اقترفتها.. لقد كان العيد من أجلي!

لم أمتلك الشجاعة للرجوع. اتصلت به هاتفيًا، في يوم آخر، فلم يكن هناك ولا أر بعدها في حياتي جيمي جونس.

واختفت ألبرتينا

وتدعى ألبرتينا ولكن اسمها الحقيقي "نيفافولو". سوداء، مقوسة خجولة سألتني في اليوم الأول عما أريد أن أتعشى:

– أي شيء – أجبت.

فنظرت إليّ نظرة مشككة ومحبطة للعزيمة؛ فقررت أن أعطيها بعض التوجيهات: أريتها الأشياء في المطبخ، أعطيتها مالًا للمشتريات، وطلبت أن تقدم فاتورة بكل شيء تشتريه.

– هل تجيدين الكتابة؟

– نعم سيدي – تمتمت.

– أنظري إذا كان هناك قلم ما في الجر.

– لا.. لا يوجد.

– كيف لا؟ قد وضعت قلمًا هناك منذ قليل.

أحنت رأسها ووضعت إصبعها على فمها، وفكرت:

– ماذا يعني "قلم ما"؟ – سألت في النهاية.

قلت لها أن الوقت متأخر وليس من المناسب أن أنتظر إعداد العشاء. ولابد من الأكل خارج البيت، اليوم.

– تبدأين العمل غدًا – قررت – أنك لست بحاجة إلى عمل أي شيء اليوم عندئذ أقفلت على نفسها الغرفة ولم تظهر إلا في اليوم التالي. في اليوم التالي لم يكن هنا ماء حتى لغسل وجهي.

– إن البواب جاء يعلمني أن المياه ستنقطع – قالت ذلك وهي تنظـــر إلي باستغراب.

– ولماذا لم تملئي المغطس، والآنية، وكل ما هناك؟

– هل كان يجب أن أملأها؟

– كان يجب، أجل.

– آ.. ها..

لم يتم إعداد الفطور، أو الغذاء أو العشاء خرجت لآكل أي شـــيء بعد أن غسلت نفسي بالمياه المعدنية. وقبل ذلك ناديـــت علـــى ألبرتينـــا فجاءت من خلوتها متكاسلة:

– كنت نائمة.. (وأطلقت ضحكة).

– اسمعي جيدًا – أنذرتها – إنهم يفتحون الماء في السابعة صباحًا، ويقفلونها في السابعة والنصف. يجب أن تبقي منتبهة جيدًا واعملي على ملء المغطس، وكل شيء، حتى لا يحدث ما حدث اليوم.

فنظرت إلي متعجبة:

– وماذا حدث اليوم؟

كانت المسألة مسألة تعبئة فعلًا، وعندما وصلت كانت الساعة قـــد تجاوزت منتصف الليل، فسمعت ضجيجًا في البيت.

– هل أنت هنا، ألبرتينا؟

– نعم سيدي.

– لماذا لا تذهبين إلى النوم؟

– أريد أن أملأ المغطس.

– في هذه الساعة؟

– كم الساعة؟

– الواحدة صباحًا.

– فقط؟ – تعجبت – إن الانتظار يكلف كثيرًا.

– هل تريد أن أرتب غرفتك؟

– أريد.

– طيب.

بعد ترتيب الغرفة وقفت ألبرتينا في وسط الصالة، حادت بوجهها خجلًا وهي الخجولة حين تتكلم معي:

– هل أستطيع تهوئة الصالة؟

– تستطيعين.

– طيب.

وقبل أن تذهب لتعالج المزلاج، ناديتها:

– ألبرتينا!

تنتظر، وهي تدير ظهرها، وإصبعها يمر بهدوء فوق شق الباب:

– أليس من الأفضل أن تعدي الفطور قبل أي شيء؟

– طيب.

بعد ذلك رن جرس الهاتف.

– لقد خابر شاب يقول أن عليك أن تذهب إلى مكان هنا لتجلب لا أعرف ماذا.

– ما اسمه؟

– اسمه غليظ.

– عندما يخابرون اطلبي الاسم.

– طيب.

وكانت تعد الغذاء. في اليوم الأول اقترحت صنع المعجنات، فقط لأجرب طعمها. وخلال ثلاثة أيام لم آكل غير معجنات.

– إذا أراد السيد أن أتوقف فسأتوقف.

– اصنعي شيئًا آخر.

– طيب.

ثم عملت بطاطا مسلوقة. بعدها قالب حلوى. بعدها مقانق. وبعدها قامت بمشوار إلى المطبخ.

– ما هذه الحماقة، هنا، ألبرتينا؟

– ليست شيئًا، لا يا سيدي – أجابت.

– طيب – أجبتها.

– وأخذت إلى غرفتها بعض الأشياء، ورقه محروقة، شمعة، ولا أعــرف أي شيء آخر. كان الهاتف يرن.

– أجيبي ألبرتينا.

– إنها مخابرة لك.

– من المتكلم.

– أو.. هو..

– من؟

– يقول أن اسمه أوهوتو

كان أوهوتو. استفدت من مكالمته وسألته إذا كان ممكنًا أن يدعوني إلى العشاء في بيته.

وأخيراً يوم السكرة. ظهرت على ثملة وهي ترقص قفزًا، ثم أخـــذتني من ذراعي وهي تقول:

– أستاذ.. أستاذ.. الفتاة هنا، ابنة الجيران، قالت إنني سكرانة، ولكن هذا كذب، لم أشرب شيئًا.. إنك لن تصدق فهي تغار منـــا! نظـــرت إليهـــا. مندهشًا. كانت تستطيع بجهد أن تقف على رجليها وبدأت بالبكاء.

– اذهبي إلى غرفتك – أمرتها، وأنا أصحب ذراعي منها بصور مأساوية غدًا نتكلم في الأمر.

لم تكترث. وأحسست بنفسي مضحكًا كماريشال يرتدي سترة النوم، مع تلك السوداء المتعلقة بذراعي، وهي تبكي.

– اتركيني! – صرخت وأنا أدفعها عني. وكان عليَّ أن أسندها من جديد كي لا تقع أرضًا:– غدًا تجهزين ملابسك وتنصرفين.

– دعني هنا.. لم أشرب شيئًا، أقسم لك!

كان في المطبخ زجاجتان من الكاشاسا وثلاث زجاجات من البيرة فارغة في الثلاجة. وكانت تطيعني مجازفة، فتشرب الثلاث ثم تشتري ثلاثًا أخرى.

أقفلت باب المطبخ، وتركتها في عوالمها. فيما بعد علمت أنها غزت شقق الجيران وهي تقوم بمسرحية. وفي اليوم التالي ضبطنا الحساب. كانت قد استلفت أكثر مما تستحق ولم تكن تجرؤ على التطلع إلي.

– دعني أبقى – طلبت مرة أخرى وهي تنتهد – أقسم بالله أنني لن أكرر هذا.

أشفقت عليها:

– ليس من أجلي أي شيء، أصرفك، ولكنني لن أحتاج إلى خادمة لأنني سأسافر وسأقضي وقتاً طويلًا في الخارج.

حركت عينيها:

- ولا خادمة؟

- ولا خادمة؟

- إذًا.. طيب.

حملت حقيبتها، استأذنت، وانصرفت.

الجمعة

كانت الساعة الحادية عشرة من ليلة الجمعة العظيمة وأنا أسير وحيدًا في طريق مقفر من "ايبانيما" عندما اعتراني شعور بارد بأن أحدًا ما كـــان ينبغي. استدرت إلى الوراء فلم أر أحدًا.

تابعت مسيري وكان أن الشخص أو الشيء الذي يتبعني قد توقـــف بتوقفي محتميًا بظلي ثم المسير معي. واستدرت مرة أخرى إلى الوراء فتأكد شعوري المسبق، واكتشفت تابعي الصامت، كان كلبًا.

على بعد خطوات مني، جالسًا على أقدامه قرب حائط بيت هنـــاك، كان ينتظر أن أواصل مسيري وهو ينظر إلي بعيني كلب كبيرتين. لا أعرف منذ كم من الوقت كان يسوق نفسه وراءي، وما إذا كان سيغير ســـكته مقتفيًا خطوات رجل التقيت به. في الحقيقة كان ينبغي كأنني سيده الجديد وينظر إلي في كل مرة كما لو كان يفتش في عيني عـــن شـــعوري تجـــاه شجاعته، في أن يجبني. ومع ذلك كلب.

وضعت أحزاني التي كانت ثقيلة في ظلمة الليل، مع صـــمت ذلـــك الحيوان الذي يتبعني مستقيمًا، إلى حيث اتجهت، فشـــعرت بـــالخوف – الخوف من مصيري المرتبط بمصير عالم مسئول في ذلك اليوم عن موت إله لم يقم بعد من الموت. أحسست أن وجع الضمير كان يرافقني في طريقـــي المعبد وقد اتخذ شكل كلب، كما يرافقني التعب كوني إنســـانًا، حيوانًـــا

بائسًا، مستسلمًا للحظ بعد أن قتل الله والإنسان الحقيقي، كأنما ذلك الكلب المصر على الالتصاق بي كان قد اعترض على ما في نفسي من الشعور بالإثم الذي يزن ثقلًا على الإنسانية جمعاء لجريمة ارتكبت ولم تمح بعد، ومن تخل عن اليتيم، ومن الضمير المعذب بسبب تناقضات هذه الحياة، ومن كل الألغاز التي تتوالى في ظلمة الليل وتنهمر كالدم المهدور، ترافقني متجسدة في شكل كلب، ولكنه لم يكن إلا كلباً.

كلب متواضع ووقور، مخيف في إصراره على إدخالي في التجربة، مرعب في إلحاحه على أن يتجسد مصيري، ولكنه لم يكن الشيطان، وما كان قادرًا أن يكون شيطانًا: كان يفتش فقط أن يعرضني للإخلاص الذي تمتاز به الكلاب، ولم يكن ينتظر سوى التجاوب مع جوعه إلى العطف، جوع كلب.. قبل ذلك اعتقدت أن صديقًا قد تجسد فيه وبتلك الطريقة كان يفتش عن أن يراني من عالم آخر، وقد اختار أن يرسل إلي رسالة حب في الليلة التي كان الموت قد عرض على العالم الخلاص بالحب. وبمجرد تذكري أحسست بنفسي وقد أنقذت من الموت وحملتني إلى إلهام أقل تجهما: ووضعتها تركض وراء لائحة الأصدقاء الذين ماتوا لأكتشف من الذي منهم يتكلم إليّ بعيني هذا الكلب، ولكنه لم يكن إلا كلبًا.

وكونه كلبًا فإنه، لدى بلوغ الركن، تخلى عن أن يستمر بالمسير خلفي وفجأة بدا مهتمًا، عصبيًا أمام رؤيته في الطرف المقابل من الشارع كلبين من بني جلدته. وقفت على مسافة بعيدة لأشاهد المشهد. الكلبان

الآخران أيضًا كانا قد اكتشفاه فاقتربا منه. وانتظر هو يتأمل في التطورات وقد نسيني.

الكلاب الثلاثة الآن، تشم بعضها البعض، دون احتفال، في تلــك اللحظة من الإحساس البدائي الذي تسود فيه الغريزة ويفــرض الأقــوى سلطته على الميدان. بعد ذلك نظرت إلى الكلاب نظرة تحدٍ ريثما أبتعــد، ورفيقي للفترة القصيرة ظل هناك، يسيطر عليه حضور الكلبين الآخــرين بقدريه تجعل منه منذ الأزل كلبًا بين الكلاب.

والآن، وأنا، الحيوان الوحيد في الليل، كان علي أن أتابع طريقــي الغامض، طريق الإنسان، وحيدًا، بانتظار قيامة الإله: دون أن أســتحقه، ودون سكة أكيدة، ودون أن يرافقني كلب على الأقل.

الفهرس